تفسير سورة الفاتحة

وحل مشكلاتها القرآنية

وبيان :

,, آيات العلوم والأخلاق فيها
وعجائب بدائع المكونات
وغرائب الآيات البينات ،،

بقلم

الأستاذ الإمام حكيم الإسلام

الشيخ طنطاوى جوهرى

رحمه الله تعالى آمين

ويليه :

آراء علماء أوروبا فى المؤلف

حقوق الطبع محفوظة

لملتزم الطبع والنشر

شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده بمصر

الطبعة الثانية
١٣٧١ هـ - ١٩٥٢ م

وأنْزَلْنا إلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ للنَّاسِ ما نُزِّلَ إلَيهِمْ
[قرآن كريم]

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا بيان للناس

من كتاب الجواهر فى تفسير القرآن الكريم

للأستاذ الشيخ طنطاوى جوهرى

هذا التفسير الكبير لم ينسج على منواله ناسج قديما ولا حديثا ، فهو الذى قبله جميع أرباب المذاهب الإسلامية من الشيعيين والسنيين وغيرهم ، وذلك بأسلوبه الجميل البديع ، السهل الممتنع ، واشتماله على جميع العلوم العصرية ملخصة موضحة ، جميلة المحيا ، حسنة الوضع ، بهيَّة الطلعة ؛ فلم يذر نباتا ولا حيوانا ولا كوكبا ولا قمرا ولا برا ولا بحرا ولا علما حديثا ولا قديما ولا نظاما اجتماعيا إلا أبرزه بمناسبة الآيات القرآنية .

وقد استبان بهذا التفسير كيف يرتقى المسلمون ، وما الطريق إلى ذلك ، مستدلا بالقرآن وآراء المتقدمين من علماء الإسلام وحكمائهم حتى إن من لم يدرس علما من العلوم الكونية فى الطبيعيات أو الفلكيات فانه يقرأ ملخصه فى هذا التفسير . ولقد أوضح مسألة العلوم العصرية

إيضاحا تاما ، وأنها مقصود القرآن . وأنها علم التوحيد ، وأنها شكر الله تعالى وزيادة إيمان . ففى كل شك فى هذا ، وزينه أيما تزيين بنصوص الأئمة الأعلام الواضحة الصريحة ، وهو مشوق للدين وللعلم وللنظام الاجتماعى وللسعادة العامة فى الدنيا والآخرة . وهاك نموذجه الدال عليه فى سورة الفاتحة التى أدرجناها فى هذه الرسالة . وقد طبع من هذا التفسير ثلاثة أجزاء والطبع مستمر فى باقيه (١) .

آراء علماء أوربا فى هذا التفسير

ستجد فى آخر هذه الرسالة نبذة مما كتبه الكاتب الشهير الفرنسى العلامة البارون (كرديفو) فى كتابه الذى عنوانه (مفكرو الإسلام) شارحا فيه أسلوب هذا التفسير ومقاصده ، وما يحدثه فى الشرق كله من الإصلاح .

---

(١) هذا كلام المؤلف عند الطبعة الأولى ، والآن ـ والحمد لله ـ قد تم طبع جميع التفسير ، وبلغ ٢٦ جزءا .

ويطلب من :

مكتبة مصطفى البابى الحلبى وأولاده

مصر ص . ب . الغورية ٧١

(١) سُورَةُ الفَاتِحَةِ
مَكِّيَّةٌ وَآيَاتُهَا سَبْعٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾
الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ الرَّحْمَٰنِ
الرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٤﴾
إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾
اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾
صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ
الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿٧﴾

نزلت بعد المدثر

تفسير الفاتحة

عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأبىٍّ « ألا أُخْبِرُكَ بِسُورَةٍ لَمْ يَنْزِلْ فى التَّوْرَاةِ والإِنْجِيلِ والقُرآنِ مِثْلُها ؟ قلتُ : بَلَى يا رَسولَ الله . قال : فاتِحَةُ الكِتابِ إنها السَّبْعُ المَثانِي والقُرآنُ العَظِيمُ الَّذِى أُوتِيتُهُ » .

نزلت هذه السورة لتعليم العباد كيف يتبرّكون باسم الله عزّ وجل فى سائر أحوالهم ، وكيف يحمدونه ويستعينون به ، فيبتدئ القارئ قائلا : أقرأ متبرّكا باسم الله الرحمن المنعم بجلائل النعم كالسموات والأرض والصحة والعقل . الرحيم المنعم بدقائقها كسواد العين ، وتلاصق شعرات أهدابها المانعات من دخول الغبار المؤذى لها ، مع أن النور يلمع من خلالها ، وينقل صور المرئيات إلى حدقتها فشبكيتها فالدماغ . فهذه الدقة فى الصنع ، والحكمة فى الوضع التى أباحت لضوء الشمس والكواكب مثلا أن يلج ، ومنعت الغبار أن يدخل يعبر عنها بلفظ الرحيم تتميا للنعمة ،وتكميلا للهناء والسعادة .

ولما كان أكثر الناس لايلحظون العجائب الكامنة فيهم ، ولا يعرف نفسه إلا قليل منهم ، وهم أكابر الحكماء والأولياء ، وجب أن أبين فى هذا المقام بعض رحمة الله عزّ وجلّ فى العالم المشاهد .

فنها ما أشار إليه العلامة الأستاذ (ميلن ادوارد) أن حيوانا يسمى (اكسيلوكوب) يعيش منفردا فى فصل الربيع ، ومتى باض مات حالا فن رحمة الله ، وجميل صنعته ، ورأفته بالخلق أن ألهم هذا الحيوان أن يبنى بيتا قبل أن يبيض على منوال ما كانت تفعله عادٌ من اتخاذ البيوت بالحفر ، ولكن هذا فى خشب وأولئك فى صخر ، فيعمد ذلك

الحيوان إلى قطعة من الخشب ، فيحفر فيها حفرة مستطيلة ، ثم يجلب طلع الأزهار وبعض الأوراق السكرية ويحشو بها ذلك السرداب ، ثم يبيض على ذلك بيضة ، ثم يأتى بنشارة الخشب ويجعلها عجينة ويجعل منها سقفا لذلك السرداب . والحكمة فى ذلك أن هذه البيضة متى فقست وخرجت الدودة كفاها ذلك الطعام سنة ، وهى المدة التى لاتستطيع تلك الدودة أن تحصل فيها قوتها ، ومتى أتمّ الحيوان ذلك صنع سردابا آخر فوقه على هذا المنوال ، وهكذا يضع جملة أدوار . فانظر كيف شملت الرحمة ما خُلق وما لم يخلق ، فان ذلك الطعام المخزون فى السرداب رحمة ألهمها الطائر لولده الذى سيخلق .

ومن هذه العجائب ما شاهده العلماء الباحثون فى أمر النحل والنمل والعنكبوت .

فأما النحل فتعجب كيف جعل الرحمن الرحيم له سبلا مذللة ، فانه متى فتح زهره أوّل النهار ليمتصّ رحيقها المختوم ويرجع به إلى الخلية فيضعه فيها ، يلهم أن لايفتح زهرة فى ذلك اليوم إلا ما كان من جنس تلك الزهرة لرحمة النحل ورحمة الناس .

أما رحمة النحل فانه لايعوزه أن يحتال فى فتح زهرات أخرى من نوع آخر فيطول عناؤه .

وأما رحمة الناس ، فإنّ ما يعلق برجلى النحلة من حبوب طلع الذكور من النبات إذا وصل إلى زهرة أنثى علق بها من ذلك الطلع بعضه ، فأثمر ذلك النبات لحصول الإلقاح بهذه الرحمة العجيبة .

وأما النمل فمن عجائب الرحمة الخاصة به ، أن الله خلق له حشرة تسمى (افلس) باللسان الأفرنجى يحاربها النمل ويغلبها ، ومتى غلبها أخذ يستولدها ويربيها ويسيمها فى ورق الورد ، ومتى أكلت وشبعت أقبل النمل عليها وامتصّ منها مادّة حلوة ، فكأنه بقر له يشرب لبنه .

وأما العنكبوت فانها ألهمت النسج البديع بهندسة فاقت هندسة الإنسان ، وعلّل ذلك العلماء بقولهم : إن هندسته إلهية ، وهندسة الإنسان بتعليم البشر ، فلذلك يغلط الإنسان ولا يغلط العنكبوت فى الهندسة . ولما كان بيت العنكبوت أضعف بيت ، ألهمها الله أن تبحث عن صمغ وغراء من أماكنها وأشجارها ، وتلطخ بها خيوطها التى نسجتها فتكسبها لزوجة ، فلذلك لاتمزّقها الرياح إذا فاجأتها ، ولاالأعاصير إذا ساورتها ، وإذا مرّ بها الذباب التقطته بمادّتها اللزجة .

فانظر إلى آثار رحمة الله تعالى كيف كانت المادّة الصمغية صائنة بيت العنكبوت الضعيف من التمزيق إذا هبت الزعازع واهتاجت الأعاصير مع أنها قد تقتلع الأشجار وتخرّب المساكن ، ثم تكون شبكة صائد وحيلة محتال ، هذه هى الرحمة والحكمة .

وهكذا ألهم الله الأنبياء وأوحى إليهم أن يعلموا العباد كيف يتبرّكون باسم الله فى أوّل أعمالهم كالقراءة والأكل ، ذاكرين ربهم ورحمته الواسعة التى عمت سائر العوالم ، فيمتلئ قلب العبد إيقانا بالرحمة واستبشارا بالنعمة ، وفرحا برحمة الرحمن الرحيم .

فاذا ابتدأ القارئ بالتسمية ، وامتلأ قلبه بتلك الرحمة ، لاجرم ينطلق لسانه بالحمد بعد أن أفعم قلبه بالإجلال فيقول : الحمد لله . يقول القارئ : ها أنا ذا عرفت رحمة الله سارية فى سائر العوالم ، ولقد علمت أن كل من أنعم عليه بنعمة يشكر مسديها . فالولد يشكر أبويه على التربية ، والضعيف الذليل يشكر القادر الشجاع الذى أنقذه من الذلّة ، والمتعلم يشكر العالم الذى أسبغ عليه نعمة العلم .

إن الأمم كالأفراد ، فاننا نرى كلّ أمة تمجد وتمدح وتحمد رجالها الذين أفادوها ورقوا صناعتها وتجارتها وثروتها فى التاريخ والمجامع ،

وهكذا شجعانها الجحاجيح وأبطالها المقاديم ، وكذا أنبياؤها وحكماؤها الذين أضاءوها بنعمة العلم والدين .

فهذه نعم واصلة من المحسنين والشجعان والعلماء إلى الأمم فاستحقوا بذلك الشكر . ولا جرم أن الشكر يكون بالقلب ثم الجوارح وأهمها اللسان فينطق بالحمد ، وهو الثناء بالجميل لأجل النعمة الواصلة بالاختيار من المنعمين .

يجيش فى نفس القارئ تلك الرحمات العامّة فيشكر مسديها بقلبه وجوارحه وهى قسمان : رحمات واصلة على أيدى الناس كالوالدين والشجعان والعلماء والأنبياء والمحسنين . ورحمة واصلة من غيرهم كإشراق الشمس ونعمة السحاب وجريان الماء وعجائب النبات وجمال الطبيعة وبهاء النجوم . وهذه النعم والرحمات بقسميها ليس لها مصدر إلا الله ، ولا جرم أن الحمد والثناء إنما يكون للمحسن الحقيقى فالحمد إذن إنما يكون له سبحانه ، فاذا مدحنا الوالدين وحمدنا الشجعان وشكرنا العلماء والأنبياء فالحمد والمدح والشكر لله ، لأنه مولى هذه الرحمة ، وإذا تمتعنا بنعمة السحاب والمطر وماء الأنهار ومعادن الجبال ونور الشمس ، فالحمد والشكر لمسديها وهو الله تعالى . فكأن القارئ يقول : ها أنا ذا عرفت أن الرحمة الواصلة للعباد مرجعها الله ، فليكن كل حمد صادر من الألسنة ، راجعا لله عزّ وجلّ ، لأنه هو المختصّ بالرحمة التى كانت سببا فى الثناء .

نسخ العادات العربية الجاهلية من مدح المحسنين والملوك
واختصاص الحمد والعبادة بالله إطلاقا للحرية والمساواة

اعلم أن العرب كان من عادتهم أن ينصتوا للشعراء ، ويسمعوا المدائح ، ويصغوا لمن هم - فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ ما لا يَفْعَلُونَ - وما كان أكبر سلطان الشعر عليهم وما

أقساه وأقواه وأملكه لقلوبهم وأسماعهم وأبصارهم ومشاعرهم ، ولقد كان الشاعر يقول البيت من الشعر مدحا فيرفع القبيلة الوضيعة المنزلة ويشيد بذكرها . ويقول بيتا ذماً فيضع القبيلة الرفيعة ويميت ذكرها . فمن الأول ما قاله الشاعر فى بنى أنف الناقة :

قوم هم الأنف والأذناب غيرهمُ ومن يسوّى بأنف النّاقة الذنَبا

ومن الثانى قول جرير :

فغضّ الطرف إنك من نمير فلا كعبا بلغت ولا كلابا

ولقد كان ذكر بنى أنف الناقة مما يعير به . فلما قيل هذا البيت رفعوا رءوسهم وفخروا بلقبهم وشرفوا بنسبهم . وكان الرجل منهم إذا سئل يقول : أنا من بنى أنف النّاقة ، ويميل صوته عجبا وتيها وافتخارا .

وكذلك بنو نمير كانوا قبل هذا البيت يتكبرون ويفخرون بنسبهم فلما أن شاع البيت طأطئوا رءوسهم ، وغضوا من صوتهم ، وانخذلوا أمام عدوّهم ، وصغروا فى المحافل .

ولقد كانت هذه حال العرب كما ترى فى شعر حسان مادح ملوك الغسانيين ، وزهير بن أبى سلمى مادح هرم بن سنان ، والنابغة الذبيانى مادح النعمان وغيرهم . فترى النابغة يقول فى النعمان :

كأنك شمس والملوك كواكب إذا طلعت لم يبد منهن كوكب

ويقول أيضا :

ألم تر أنّ الله أعطاك سورة ترى كلّ ملْك دونها يتذبذب

ويقول أيضا :

فانك كالليل الذى هو مدركى وإن خلت أن المنتأى عنك واسع

ويقول زهير فى هرم :

قد جعل المبتغون الخير فى هرم والسائلون إلى أبوابه طرقا

وقال فى قومه أيضا :

على مكثريهم رزق من يعتريهم وعند المقلين السماحة والبذل
وهل ينبت الخطىُّ إلا وشيجَه وهل نبتت إلا بمغرسها النخل

يريد أن الفقراء منهم كرماء والأغنياء يعطون ما يسألون . ثم يقول : وهل الرماح الخطية التى تجلب من الخط وهو مرفأ ببلاد البحرين كانت ترد له الرماح تنبت إلا فى شجرها . وهل النخل تنبت إلا فى منابتها ؟ .

هذا قُلٌ من كُثر ، ومثل من عادات العرب فى الجاهلية ، فكانت المحامد من الشعراء تلقى إلى الملوك ، وكانت أنظارهم قاصرة على رؤسائهم ، فلما جاء القرآن فاجأهم بقوله : لا تحمدوا الملوك والمحسنين ، ولكن احمدوا الله كما قال الأعشى فى قصيدته :

وصلِّ على حين العشيات والضحى ولا تحمد المثرين والله فاحمدا

أمر العرب أن يولوا وجوههم قبل الله ، وأن يصدّوا عن المدائح الملكية ، ولذوى الشرف إطلاقا لنفوسهم من الأسر ، ولعقولهم من الغفلة ، وتعويدا لهم على الحرية العقلية ، وأن ينسوا الإحسان القليل الصادر من المخلوق الضعيف ، وأن يطلبوا الخير والمعروف عند الله الذى هو المربى لجميع العالمين من الملوك والمثرين وغيرهم ، فاذا فعلوا ذلك أصبحوا سادة العالم ، لأنهم بنظرهم فى العوالم ، وبحثهم فى نظامها وعجائبها ، وما أودع فيها من حكمة دقيقة وغنى وشرف ، ينالون الخير من المربى العظيم والخالق الحكيم بجدّهم واجتهادهم لا بالاستجداء من الملوك ، ولا بالتوسل للمحسنين ؛ ولقد حقق الله بعض ماذكرناه ألا ترى أنهم فتحوا الأمم شرقا وغربا باتحادهم ، ونالوا من الخيرات فوق ما يبتغون ؟ .

وفى هذه السورة أمر الله المسلمين أن يخصوا الله بالحمد وبالعبادة

كما جاء فى سورة البقرة إذ أمرهم أن يذكروا الله كذكرهم آباءهم أو أشدّ ذكرا إذا قضوا مناسكهم ، إذ قال تعالى ـ فإذَا قَضيْتُم مَنَاسِكَكُمْ فاذْكُرُوا الله كَذِكْرِكُمْ آباءَكُمْ أوْ أشَدَّ ذِكْراً ـ فرجع الأمر إلى توجيه العبادة والحمد والذكر لله ، وتحريم عبادة المخلوق والخضوع ، فتتوفر الهمم على الأعمال العظيمة .

ألا ترى إلى ما قاله النعمان بن مقرِّن إلى يزدجرد ملك الفرس أيام حرب القادسيَّة فى زمن عمر رضى الله عنه : إن نبينا صلى الله عليه وسلم أمرنا أن نبتدئ بمن يلينا من الأمم فندعوهم إلى الإنصاف ، فنحن ندعوكم إلى ديننا ، وهو دين حسَّن الحسن ، وقبَّح القبيح كله ، فان أبيتم فأمر من الشرّ أهون من آخر شرّ منه الجزية ، فان أبيتم فالمناجزة الخ .

وتأمَّل قول زهرة لرستم قائد جيش الفرس إذ ذاك : إنا لم نأتكم لطلب الدنيا ، إنما طلِبتنا وهمتنا الآخرة ، فقال له رستم : مادين الإسلام ؟ قال : أن تشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله ، قال : وأىّ شىء أيضا ؟ قال : إخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة الله ، والناس بنو آدم وحوّاء إخوة لأب وأم . قال : ما أحسن هذا ، ثم دعا رستم قومه فأنفوا من ذلك ، ثم طلبوا من سعد بن أبى وقاص رجلا آخر يكلمهم ، فأرسل ربعى بن عامر ؛ فلما وصل إلى رستم داس بفرسه على النمارق والبسط والزينة والحرير ، وامتنع أن ينزع سلاحه وأخذ يمزّق الوسائد والبسط ، ثم ركز رمحه على البسط ؛ ومما قاله : قد بعثنا الله لنخرج من يشاء من عباده من ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام الخ .

فأعجب بكلامه رستم وخلا بقومه وقال لهم : هل رأيتم كلاما أعزّ وأوضح من هذا ؟ فقالوا : معاذ الله أن نميل إلى دين هذا الكلب ؛

ثم أرسل لهم المغيرة بن شعبة فجلس مع رستم على سريره فأنزلوه فقال : ما أرى قوما أسفه أحلاما منكم ، إنا معشر العرب لايستعبد بعضنا بعضا ، وإنى رأيت أن بعضكم أرباب بعض ، وإن هذا الأمر لايستقيم فيكم اه .

ألست ترى أن هذه المحاورات والخطب تتقارب مع ما ذكرناه فى فاتحة الكتاب ، وأن العبادة والحمد مختصان بالله عزّ وجلّ ، وأنه هو الذى يطلب منه الإعانة والهداية إلى الصراط السوىّ .

ألا ترى أن الإسلام كان له فى الصدر الأوّل معنى غير الذى يفهم المسلمون الآن ، وأن الأمة الإسلامية اليوم غير أولئك الذين كانوا فى القرون الأولى ، وإلا فكيف نسمع منهم العدل والمساواة ، وأن لايستعبد بعضهم بعضا ، وأنهم خلفاء الله فى أرضه ليعطوا عباده الحرّية ، فالإسلام إذ ذاك مبنى على الفهم والعلم والعقل . فأما الآن فانه مجرّد ظواهر وأعمال لاتصل إلى أعماق القلوب ، فلذلك انحطت الأمم الإسلامية اليوم ، وقد آن أن ترجع إلى عزّها القديم ومجدها العظيم .

الشريعة الإسلامية والنظر فى الآفاق والأنفس

قد تبين لك مما ذكرناه أن الحمد والعبادة مختصان بالله ، والقرآن طافح بهذه المعانى ، وقد ظهرت آثاره فى أقوال السلف الصالح كما رأيت ، وهكذا كانت أفعالهم ، وبالشريعة من الحدود والأحكام والبيع والقرض والميراث وأحكام القضاء من الجنايات وغيرها المبينة فى كتب الفقه حكموا الأمم وعدلوا فملكوا شرقا وغربا ، هذا كله بالشريعة ، وهى الأحكام الشرعية المعروفة التى تدرس فى بلاد الإسلام وآياتها محدودات .

فأما آيات العلوم الكونية فانها تبلغ نحو (٧٥٠) آية كلها فى عجائب

هذا الكون ومنافعه وغرائبه . والذى أراه أن المسلمين فى مستقبل الزمان سيقرءون هذه الآيات ويعرفون هذه العجائب .

وكما أن الذين قبلنا درسوا الشريعة وأحكموها وحكموا الأمم بها ثم دالت دولتهم . فهكذا سيكون فى هذه الأمة من يرون الكون خلق الله وآياته وعجائبه وحكمه ، وقد ذكرها الله فى كتابه أكثر مما ذكر من الأحكام الشرعية والعناية الإلهية ، توجهت إليها أكثر من توجهها إلى أحكام الفقه . فيدرسون علوم الهيئة والفلك والحساب والهندسة وعلم المعدن والنبات والحيوان وسائر علوم هذه الدنيا ، ويرون أن ذلك من الدين فيكون علم الدين على قسمين حينئذ :

العلم الأوّل : علم الآفاق والأنفس : أى معرفة العوالم العلوية والسفلية المشروحة فى هذا التفسير ، وعلم النفس .

والعلم الثانى : علم الشريعة ، فنرى العالم الدينى شارحا النبات والحيوان ، والآخر مدير المعمل الكيماوى ، وهذا من قوله تعالى « سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِى الآفَاقِ وَفِى أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ » ومن قوله هنا (الحمد لله ربّ العالمين) والعالم علوى وسفلى ، والله ربهما والمسلمون خلفاؤه فى الأرض بالقضاء والعدل بين الناس وبالبحث ومعرفة العوالم ، فكما برع آباؤنا فى القضاء والحكم بين الناس فلنقم نحن بذلك ، وندرس علوم العوالم كلها باعتبار أن ديننا يأمرنا به ، وإلا فما الفرق بين « قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ » وبين قوله « وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ » كلاهما أمر والأمر للوجوب ، فاذا نحن قرأنا الأحكام الشرعية وقضينا بها ، فلنقرأ العجائب الكونية ولنعمل بها ، فنرقى الزراعة والصناعة والتجارة .

وإنى أدعو جميع أمم الإسلام فى مشارق الأرض ومغاربها أن يعنوا

النظر فيما أقول ، وإلا فكيف يقول الله تعالى ـ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ـ وكيف يظهر على الأديان إلا بهذه المزية ، وهى أن الديانات لاتتعرّض لعلوم الكائنات ، والإسلام يدعو إليها ويأمر بها ، وهذه صفة خاصة به لايشاركه فيها دين من الأديان .

ليعلّم كل عالم أو ملك أمّته جميع العلوم باعتبار أنها من الإسلام كما سيظهر إن شاء الله فى هذا التفسير ، فاذا أبى المسلمون ما ذكرناه فانى أنذرهم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود ، وقد بدت بوادرها من الطيارات القاذفات النار على القرى والشيوخ والصبيان ، فمن تكاسل من المسلمين عن هذه العلوم فلا يلومنّ إلا نفسه ـ إنَّ اللهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ ، وَإِذَا أَرَادَ اللهُ بِقَوْمٍ سُوءاً فَلَا مَرَدَّ لَهُ ـ .

ألا وإن أرباب المذاهب من شيعة وسنية ومالكية وحنابلة وحنفية وشافعية وزيدية كان اختلافهم فى مسائل من الشريعة المطهرة ، فاذا قرءوا علوم الآفاق التى أرشد إليها القرآن لم يكن بينهم اختلاف فيها لأنها مكشوفة ظاهرة ، والله هو الذى منحهم إياها . فليقرأ المسلمون فى الشرق والغرب جميع العلوم التى برع فيها الأفرنج وهى علوم الأنفس والآفاق ، وإذ ذاك يرون أن الخلاف بينهم فى الشريعة يسير جدا بالنسبة لما اتفقوا فيه . إلى هذا أدعو جميع المسلمين والله يهدى إلى سواء الصراط . إن علماءنا السابقين شرحوا هذا فى كتبهم ودوّنوه فى دفاترهم ، ولكن المسلمين كانوا فى غفلة ساهين .

ليقف العالم بين الناس شارحا لهم جمال الزهر وبهجة القمر وبدائع النبات وغرائب الطبّ والمعادن ليفهم غيره وليكثر من هذا .

أولايرى علماء الإسلام من سنيين وشيعيين وزيديين وغيرهم

أن علوم الخلق من العوالم العلوية والسفلية غذاء ، وأن علوم الشريعة وهى الأحكام الفقهية التى صرفوا فيها أعمارهم دواء ؟ وكيف يعيش الإنسان إلا بالغذاء ، وهو إذا تعاطى الدواء وحده هلك ، بل الغذاء هو الدائم الطلب ، أما الدواء فانما يكون عند انحراف الصحة .

فيا أيها المسلمون اطلبوا علوم الغذاء وعلوم الدواء : أى العلوم الكونية والعلوم الشرعية وجميعها يطلبها القرآن . وقد اعتنى بعلوم الغذاء أشدّ من عنايته بالدواء ، فمالى أراكم عما قدّمه الله معرضين ، وعلى ما أخره الله عاكفين . قدّم تربيته للعالمين ورحمته للمخلوقين على العبادة وهداية الصراط المستقيم ، كأنه يشوّقكم إلى دراسة رحماته ويأمركم بمعرفة كلماته الكونية وآياته الرحمانية وعجائبه الحكمية وبدائعه الفطرية ، وما ذرأ من البهجات وما زوّق من المصنوعات .

ولقد ساءنى والله ما أرى من إعراض بعض العلماء بالدين عن عجائب الخلق ، ولقد كنت أودّ أن أرى أولئك الذين نزحوا إلى أوروبا بعلم الطبيعة مغرمين ، وبعجائب الخليقة مسارعين ، ولكنى رأيتهم منصرفين إلى الوظائف الوقتية والأعمال الإدارية ، وما رأيت أحدا منهم بالعلوم الكونية مغرما ، فتشابه فى بلادنا العلماء الدينيون والشبان الذين هم للكون دارسون ، فالأوّلون على أحكام الفقه مقتصرون ، وهؤلاء بالوظائف قانعون و ـ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ـ إلا قليلا من الفريقين نالوا حظا عظيما ـ وَقَلِيلٌ مَاهُمْ ـ ـ وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ـ .

فاذا تأمّل المسلمون ما ذكرناه كان حمدهم حقيقيا إذا عملوا بمقتضاه ، ولما كان كل حمد لابد له من سبب يستوجبه ، وقد ذكرنا السبب إجماليا وهو الرحمة وكان الإجمال لايغنى عن التفصيل ، ذكر الله أهم النعم ؛ وهى أنه مربى العالمين فقال ﴿ ربّ العالمين ﴾

مربى العوالم كلها ومرقيها من حال النقص إلى حال الكمال وغايات التمام . فهو الذى يتعهد النبات بالتغذية والإنماء . وهكذا الحيوان والإنسان . وكذا العوالم العلوية ؛ وهذه هى التربية التى كان مبدؤها الرحمة . ولأذكرنّ لك مسائل من التربية :

المسئلة الأولى : الذرة

إن المسلمين فى أنحاء المعمورة يأكلون الذرة ويشاهدون مزارعها وأكثرهم يجهلون ما دبّر الله عزّ وجلّ فيها وكيف ربى الحبة الواحدة فى (المطر) وهو المسمى (الكوز) عند العامّة فى بلادنا المصرية ، وهو مجمع الحبّ الذى يتكوّن حوله سطور منظمة . لو يعلم المسلمون كيفية تربية الله للحبة الواحدة لعجبوا من صنع ربهم ، وفهموا كيف يربى العوالم كلها . إن لكلّ عود من أعواد الذرة ذكورا فى أعلاه وإناثا فى وسطه ، أما الذكور فهو ما يسميه العامّة (الكذاب) وهو أغصان بيضاء فيها طلع مخفىّ عن الناس ، ذلك الطلع ينزل على ذلك (المطر) الذى هو مجمع الحبّ ، وله خيوط طويلات حريرية حمر أو بيض ، تلك الخيوط الدقيقة مثقوبة من أوسطها ثقبا لايشعر به الناس ، فينزل الطلع من أعلى العود إلى تلك الخيوط التى يسميها العامة فى مصر (شرابة) فيدخل ذلك الطلع فى التجويف الذى فى تلك الخيوط ويسرى حتى يصل إلى محلّ الأنثى فى (المطر) أى محلّ الحبّ فتلقح تلك الأنثى فتخرج حبة واحدة بذلك التدبير . فانظر وتعجب كم فى ذلك المطر من حبة ، وكيف كان لكل حبة رحم مخصوص ولقح ينزل على ذلك الخيط حتى يصل فى التجويف إلى الأم فتحمل بتلك الحبة . ولقد ذكرت هذا فى كتابى « جواهر العلوم » وأوضحته أيما إيضاح .

المسألة الثانية : حبة القمح

لقد توجهت إلى مدرسة الزراعة المصرية بالجيزة . فأرونى حبة القمح مكبّرة مجسمة بشكل (الكفرّى) أى الغلاف الذى فى جوفه طلع ذكور النخل . فرأيت أن لكلّ حبة من حبات السنبلة ثلاثة أغشية ملتفة حولها . وفى أعلى تلك الأغشية (السفا) جمع سفاة كأنها أسنة تحمل أكياسا مملوءة طلعا كطلع النخل أو كطلع الذرة المتقدم . وهذه الأكياس المحمولة على تلك الأسنة تنزل ذلك الطلع على محلّ الأنثى وهى موضع تلك الحبة من السنبلة ، ومتى وقع طلع الذكور عليها حملت بتلك الحبة . ألا فليعجب المسلمون من تربية الله مربى العالمين ، وكيف كانت عنايته تامّة بالحبة الواحدة من الذرة ومن القمح ، وكيف جعل لها أنثى وذكرا وألّف بينهما ، وجعل الحبة نتيجة لتلك الحكمة ، وكيف يقرأ المسلمون فى صلواتهم كلّ آن أن الله مربى العالمين وأكثرهم يجهلون تربيته .

إنى لأعجب غاية العجب من أمّة يكون مبنى عبادتها ودينها على معرفة حكمة الله وتربيته ، ثم يجىء الفرنجة فيسبقونهم بتلك المعارف الشريفة العالية . يا أمّة الإسلام كيف نقرأ فى صلاتنا أن الله ربّ العالمين ، ونحن نجهل تلك التربية فى صغيرات الأمور وكبيراتها .

وإذا كانت عناية الله قد بهرت وظهرت فى حبة ذرة وحبة قمح ، فكم من حبات فيهما يزدردها الإنسان وهو أشبه بالبهائم ؛ ألا لافرق بين الإنسان والحيوان إلا بهذه العلوم ، ولو كان المدار على الخبز والماء والملابس والزينة لقال لنا الله : الحمد لله الذى أروانا أو الذى أشبعنا ، أو الذى ألبسنا ، أو الذى جاء لنا بولد أو بمال ، بل قال لنا الذى شمل العالم بالتربية ، فكأنه يراد منا أن نكون مفكرين علماء ، لاأن نأكل كما تأكل الأنعام ، ونموت كما يموت الدود .

ولو كان المراد أن نعرف الله بأنه مثيب ومعاقب على الحسنات والسيئات فقط لقال لنا : الحمد لله رب الحسنات والسيئات ؛ إن الله واسع الرحمة عظيم الذنب واسع العطايا ، فاقتصار الوعاظ على ذكر الثواب والعقاب قصور معيب .

اللهم إنى أفرغت جهدى فى إيقاظ الأمة وأديت ما على ، وإنى أسألك أن تعينى على إتمام هذا التفسير إنك أنت السميع المجيب .

المسئلة الثالثة : تربية الثمرة فى النخلة

ذلك أن النخلة تجذب ما رق وراق من خلاصة العناصر الأرضية لتتغذى بها أجزاؤها ، فيرتفع ذلك الغذاء فيغذى جذع النخلة بما غلظ منه ، وأما خلاصته فتذهب صاعدة إلى الجريد فيغتذى بها ويبقى ما هو ألطف من تلك الخلاصة فيرتفع إلى القنوان ، فيغتذى القنو بتلك اللطائف ، ثم ما رق وراق من ذلك يرتفع إلى شماريخ الثمر فتتغذى به ، وترتفع الخلاصة إلى الثمرة فتقابلها فى أولها تلك التى على فمها المسماة بالقمع ، وذلك القمع مصفاة تصفى الغذاء وتأخذ ألطفه وتوصله إلى جرم الثمرة ، وهذه الخلاصة المصفاة يؤخذ ما غلظ منها فيصير نواة ، وما لطف يكون جرم الثمرة الحلو اللذيذ ، ثم جعل هناك منسوج حريرى رقيق صفيق فوق النواة فاصلا بينها وبين المادة الحلوة لئلا تصل المرارة من النواة إلى ما فوقها فتذهب بالحلاوة ؛ وجعل فى شق النواة ذلك الفتيل الطويل ووظيفته إيصال الغذاء إلى سائر أجزاء الثمرة .

فتأمل كيف صفى الغذاء سبع مرات حتى وصل إلى ما يأكله الإنسان من الثمر والرطب والبسر فتصفيه الجذور فى الأرض من خلاصة العناصر ، ثم جذع النخلة ، ثم الجريد ، ثم القنو ، ثم الشماريخ

فالمصفاة فالنواة . فتعجب من تربية الله للتمرة والرطبة وكيف راعاها حقّ رعايتها حتى صارت إلى ما هى عليه الآن من اللذّة والمنفعة .

المسئلة الرابعة : تربية الله اللؤلؤ فى البحر ويسمى الدرّ والجمان

وهو حيوان يعوم على وجه الماء ثم يهبط فى الأعماق . وهو داخل صدف من المواد الكلسية وقاية له من الأخطار . والدرّ يتكوّن فى لحمه .

ومن عجيب صنع الله عزّ وجلّ أن يجعل هذا الحيوان مخالفا لما تعرفه من سائر الحيوانات . إن الحيوان يشمّ بأنف ويأكل ويشرب بفم ويتنفس بهما ، ويمنع المضارّ عنه بيديه وقرونه وقواه وحصونه وجيوشه . أما حيوان اللؤلؤ فان له شبكة دقيقة كشبكة الصياد متداخلة عجيبة النسج تكون مصفاة له ، فيدخل إلى جوفه الماء والهواء وموادّ الغذاء ، ويمنع الرمال وغيرها من المضارّ من الدخول فى جوفه ، وتحت تلك الشبكات أفواه لكلّ فم أربع شفاه تقبل الملائم من تلك الموادّ وتدفع غيره . واللؤلؤ ينشأ من تجمع رمل أو حيوانات ضارّة تدخل قسرا الصدفة ، فيفرز حيوانها مادّة لزجة يغطيها بها ، ثم تجمد وتتحجر . ومن اللؤلؤ ما هو أصغر من العدسة ، ومنه ما هو أكبر من بيضة الحمام ، وينبت فى خليج فارس وخليج المكسيك وجزيرة سيلان .

فتعجب من تربية الله لحبة الذرة وحبة القمح والتمرة والدرّة فى البحر التى تتحلى بها الحسان وتيجان الملوك ؛ ألا وإن حليتها فى صدور الحكماء ، وعلم تربيتها فى أفئدة العلماء أبقى أثرا وأشرف ذكرا وأرفع مقاما .

المسئلة الخامسة : تربية الجنين فى بطن أمّه

إن للأجنة علما خاصا يدرس فى مدارس العالم الراقى ، وهى من التّربية الإلهية الداخلة فى قوله (ربّ العالمين) إن الحيوان المنوى الجارى من الحيوانات التى تعدّ بالآلاف ومئات الآلاف فى الماء المهين يسارع فى مجراه عند مصبه حتى يلاقى حيوانا من التى سارعت جارية من ماء الإناث فيلتقيان ويكوّنان خلية واحدة ، ثم تكبر بالانقسام ٢ ٤ ٨ ١٦ ٣٢ ٦٤ ١٢٨ وهكذا بطريق المتوالية الهندسية المحتوية على بيوت الشطرنج ذات الأسرار العجيبة فى علم الارتماطيقى ، وهكذا التكاثر المنتظم السريع بهذه المتوالية يستمر إلى تسعة أشهر .

ومن عجب أن هذا الانقسام العددى فى الخلايا يتبعه نظام مدهش فى الأعضاء والشرايين والأوردة والعروق والرباطات واللحم والشحم والظفر والشعر والحواسّ المدهشة الدقيقة الصنع . عجب وأىّ عجب ! انقسام الخلية (المكوّنة من الحيوان المذكر ومن الحيوان المؤنث) إلى المضاعفات بنظام تامّ آلافا مؤلفة ، يتبعه نظام فى الأعضاء فكان ظفر ومخّ وماء زجاجى فى العين ، إن فى ذلك لعجبا عجابا ونظاما غريبا ، حرام على المسلمين أن يجهلوا تربية الله للأجنّة فى بطون أمّهاتها .

حكاية

حكى فى أيامنا هذه أن رجلا أمريكيا أراد أن يستخرج الفراخ من بيض الدجاج بدون واسطة الدجاجات وحضنها للبيض ، فخطر له أن يجعل البيض فى حرارة تضارع الحرارة التى ينالها البيض من الدجاجة الحاضنة له ؛ فلما جمع البيض وابتدأ العمل ، قال له الفلاح :

يا أيها السيد لابدّ لك أن تقلب البيض كل أربع وعشرين ساعة مرّة لأنى رأيت الدجاجة تقلبه هكذا . فسخر منه ذلك العالم وقال له : أيها الفلاح إن الدجاجة تقلب البيض لتعطى الجزء الأسفل منه حرارة جسمها الذى حرمته . أما نحن فحرارتنا محيطة بالبيض من جميع جهاته فأنى يستوى عملنا وعمل الدجاجة . ثم استمرّ فى عمله .

فلما جاء دور الفقس لم تنقس بيضة واحدة ولم ينل منها فرخا ، فقال : لابدّ أن أفعل فى المرّة الثانية ما أشار به الفلاح . ثم صار يقلبه كما لقنه الفلاح . ففقس جميع البيض وخرجت منه أفراخ كثيرة فطار الخبر فى أنحاء المعمورة ، وطلب من العلماء تفسير هذه الحادثة؛ وآخر ما رأوه أن قالوا : إن الفرخ حينما يخلق فى البيض إذا بقى بدون تحريك انحدرت المواد إلى الجهة السفلى من جسمه فتتمزّق أوعيته ، فاذا بقيت رأسه لم تحرّك مثلا تمزّقت من الأسفل لكثرة الموادّ من الجهة السفلية وهكذا بقية الأعضاء . فهذه وأمثالها مما لايتناهى يدلنا على أننا فى حومة الجهالة فى وسط بحر لجىّ من الحكمة لايعرف قراره ولا يدرى منتهاه .

المسئلة السادسة : تربية الولد باللبن

خلق الله اللبن فى الثدى قبل أن يولد الطفل ، وكلما كبر الجنين ازداد اللبن فى الثدى ، حتى إذا ما تمّ حمله وكانت الولادة درّ له لبن مناسب لسنه ، فكلما كبر سنا اقترب اللبن من طبعه وتناسب مع قوّته ، حتى إن علماء الطبّ حرّموا أن يرضع حديث الولادة من امرأة قديمة العهد بها ، لأن الطفل لايتحمل لبنها . وقالوا أيضا : الأولى بكل طفل أمّه فى الرضاعة ، فان لبنها أنسب له ، وذلك من التربية التى تضمنها لفظ (الحمد لله ربّ العالمين) ـ الّذى أعطى

كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى - ومن عجب أن العجوز والصغيرة جدا لاتشتهيان ولا يقترب منهما الرجال لحكمة الله عزّ وجلّ ، لأنهما لاقبل لهما بالحمل ولا الولادة ولا الإرضاع ، فهذه الحكمة ناطقة بلسان فصيح قائلة : ما جعل الذكر والأنثى فى الإنسان والحيوان إلا للإنتاج . فأما الشهوات واللذّات فانما هى مقدمات وممهدات للنسل .

المسئلة السابعة : التربية الطبية

ولنذكر منها قليلا فنقول : قال الأطباء : مراعاة الصحة أفضل من استعمال الدواء : يعنى أنك إذا حافظت على جسمك ، وراعيت صحتك ، ونظمت أغذيتك لم تحتج إلى الدواء . وقالوا : إن جميع الاستفراغات والمسهلات للبدن مثل الصابون للثوب إذا أكثر استعماله أبلاه سريعا ، وأكثر المسهلات سمية قاتلة إذا لم يعرف القدر المستعمل منها ، وربما يحرّك المسهل أخلاطا رديئة كامنة فى الجوف فيثور منها علل عظيمة وداء لادواء له ؛ فترك المسهل والاستفراغات جميعا أولى وأوفر ما وجد الإنسان سبيلا إلى السلامة إلا عند الضرورة الملجئة فيستعمل منها القدر اليسير الأسلم . وقال الأطباء : متى أمكنك أن تعالج المريض بالغذاء فلا تعطه شيئا من الأدوية ، ومتى قدرت أن تعالجه بدواء خفيف مفرد فلا تعالجه بدواء مركب ولا قوىّ ، ولا تستعمل الأدوية الغريبة المجهولة ما أمكنك إلا أن يصحّ لك منها شىء بالتجربة ، وإذا مالت شهوة المريض إلى غذاء لايوافقه فأعطه منه اليسير . هذا ما أردت ذكره من تربية الله للناس بعلم الطبّ الذى لم تراع أصوله فى بلاد الإسلام والعالم كله لايزال فيه طفلا لايدرى ما منتهاه .

المسئلة الثامنة : التربية فى المدارس والتعليم

إن علم التربية فى المدارس يدرس للمدرّسين ، ولأذكرنّ لك منه مسئلة واحدة لأنها من تربية الله للعالمين .

اعلم أن الله تعالى خلق المخّ وجعله مركز الفكر والخيال والتذكر والحسّ المشترك والحافظة ، ومادّته سمراء من خارجها بيضاء من داخلها ، وقد ربى الله مخّ الناس فجعل أدناهم يبلغ مخه نحو ستّ عشرة أوقية ، وأعلاهم وهم النابغون يبلغ المخّ فيهم أربعا وستين أوقية . وقد تبين لك فيما تقدّم أن أجسامنا مركبة من خلايا كثيرة تتكاثر بالانقسام ، والمخّ منها مركب من آلاف الآلاف من الخلايا الدقيقة ، وهذه الخلايا أشكالها صغيرة مستديرة حولها نتوءات صغيرات . فمن عجائب صنع الله عزّ وجلّ أن جعل هذه الخلايا لوحا محفوظا فى الدماغ لما يرد على النفس من السمع والبصر والشمّ والذوق واللمس ، فهنالك خلايا مختصة بقبول المحسوسات ، فمنها ما هو للسمع ، ومنها ما هو للبصر ، ومنها ما هو للشمّ وهكذا ، ومنها ما هو للتفكر والتعقل ، ومنها ما هو للتذكير ، ومنها ما هو للقوّة الناطقة ، ومنها ما هو للقوّة الكاتبة والصانعة فى اليد ، فاذا اختلّ منها بعض الخلايا تعطلت القوّة الكامنة فيها ولا ينفع فيها التعليم ألبتة ؛ فلو أن الخلايا المعدة لعلم الأعداد فقدت فانه لايمكنه أن يتعلمه ، فكأنما هذه الخلايا المختلفة المتباينة رياض وغياض يخرج فيها مختلف الزرع والشجر والفاكهة والأبّ ، ولكل منطقة من مناطق الأرض مزارع خاصة بها كالقطن والنخل ، فهكذا هنا فى خلايا المخّ ، ونتيجة هذه المعرفة فى التعليم أنّ المعلم إذا ألقى الدرس على التلميذ فنظره ببصره مكتوبا بخطّ جميل ، وسمع نطق المعلم ونطق به هو وكتبه بخطّ جميل ، فهنالك تكون آثار أربعة : آثار البصر ، وآثار السمع ، وآثار النطق ،

وآثار الكتابة ، كل ذلك فى المخ ، وهناك تتكيف الخلايا المختصة بها ويحصل بينها علاقات . فتمتد خلايا النطق بخيوط رقيقة إلى خلايا السمع وخلايا البصر وخلايا الكتابة . فتتعاون وتحفظ الكلمة فى ذهن التلميذ ويصير الدرس مفهوما جدا . وإن قصر فى بعض هذه كأن قبح خطّ الكاتب . أو لم يصغ التلميذ . أو لم يكتب بيده ، كان الأثر فى العقل ضعيفا . والحفظ ضائعا .

وهذه الخلايا المتصلة المتعاونة محالّ لما يسمى « الحسّ المشترك » الذى يجمع ما تأتى به الحواسّ ثم تأخذه القوّة المتخيِّلة فتحلل فيه وتركب ، ثم القوّة المفكرة فتستنتج ، ثم القوّة الحافظة فتحفظه وهكذا فهذه المسئلة من علم (البيداجوجيا) وهو فنّ يعرف به كيفية تربية الناشئين على أكمل وجه ، وهو يستمدّ من علم التشريح وعلم النفس كما رأيت ، وهذه التربية داخلة فى قوله تعالى (ربّ العالمين) .

المسئلة التاسعة : تربية الله للعقول الكبيرة بعلم المنطق لإدراك العلوم العالية

فنقول : اعلم أن كل حاسة من الحواسّ الخمس لايمكنها أن تحكم بما ارتسم فيها ، ولكن الذى يحكم هو العقل . مثلا إذا رأى الإنسان سرابا وسط النهار فليست الباصرة مخطئة فى رؤيته ، وإنما المخطئ الفكر فى استنتاجه إذ ظنه ماء ، وإنما سبيل المفكرة أن تتربص وتنظر حكم القوّة اللامسة والقوّة الذائقة ، فاذا لمسه باليد وذاقه باللسان فعرفه ماء فبها وإلا فلا ، وهكذا إذا نظر الإنسان بقوّة الباصرة تفاحة مصنوعة من كافور مصبوغة كلون التفاح ، فورد خبرها إلى المتخيلة ، فالمفكرة ، فليس للمفكرة أن تحكم أن طعمها ورائحتها وملمسها مثل التفاحة ، فلا بدّ لها أن تستخبر قوّة الذائقة

والشامة واللامسة ، وحينئذ يمكن الحكم عليها بالإثبات والنفى . هذه من تربية الله للعالمين العقلاء . فاذا سقط الفَراش فى النار ومات فالعيب على ضعف قوّته المفكرة الضئيلة لأنها حكمت على ضوء النار أنه كضوء الشمس . وقنعت بالقوّة الباصرة ، وهنا كان يجب أن يحكم القوّة اللامسة ليعرف الحارّ من البارد . وهكذا ترى سائر البشر يذهبون فى الدنيا والدين ضحية جهلهم وحكمهم بأحكام مقدّماتها ناقصة ، وهذا من قوله تعالى (ربّ العالمين) .

الحمد يكون على مقدار علم الحامد

ألا وإن الحامد كلما كان أعرف بصفات المحمود كان أصدق حمدا وكلما كان قليل العلم بها كان أقرب إلى الكذب فى حمده . ولذلك نجد الناس إذا أرادوا تأبين ميت أو تكريم حىّ جمعوا من الكتب ما كان له من محمدة ، وإذا أرادوا ذمًّا نقَّبوا عن الأعمال السيئة ، فهكذا هنا لن يعرف المسلمون محامد الله حتى يقرءوا نظام الطبيعة لأنها أفعاله وآثاره وعجائب صنعه ، وهى كتاب التاريخ الذى حفظ فى سجلّ الدهر ؛ فاذا أراد المسلمون أن يحمدوا الله حقّ حمده فليقرأ عقلاؤهم نظام الطبيعة وليدققوها وليفهموا دقائق التكوين فلا يتركون علما إلا درسوه ، ولا فنا إلا عرفوه ، وحينئذ يحمدون الله حقّ حمده كما تحمد الأمم رجالها وتمدح شجعانها بذكر مآثرهم التى انتفعوا بها ، فاذا قالوا الحمد لله كان ذلك على الحقيقة والواقع لابمجرّد اللفظ . ولعلك تقول ها أنا ذا قد عرفت أنه لابدّ من معرفة نعم الله حتى أكون حامدا له حقّ حمده بحسب طاقتى البشرية فما مجامع تلك النعم . أقول : كل العلوم مجامع الحمد ، وسأفصلها لك فى التفسير ، بل كل ما أشار له القرآن هو مآثر تربية العالمين التى تستوجب الحمد ولأذكرنّ لك مجملها فأقول :

معنى العالمين

اعلم أن العالمين جمع عالم . وهو ما سوى الله تعالى . والعالم قسمان : عالم علوىّ . وعالم سفلى . والعلوى هو الكواكب والشمس والقمر والسيارات وأقمارها . ولا يتسنى لك معرفتها إلا بضرب مثل. تصوّر امرأة جميلة الصورة طويلة القامة كثيرة الحلى والحلل مشرقة الوجه . وهذه المرأة قد ولدت عشر فتيات . وهنّ أقلّ منها قامة وحليا وحللا وإشراق وجه ، وقد أحطن بها كالهالة بالقمر وأخذن يدرن حولها بنسب معلومة ومواقيت محدودة ، وكلّ واحدة من الفتيات العشر ولدت عشر فتيات أقلّ منها طول قامة وحليا وحللا وإشراق وجه ، وهنّ يدرن حولها بنسب محفوظة وأوقات معلومة ، ثم كل واحدة من هؤلاء ولدت عشر فتيات أقلّ منها طولا وجمالا وإشراق وجه وحليا وحللا ، وهكذا فالجيل الأوّل عشر فتيات ، والثانى مائة ، والثالث ألف ، والرابع عشرة آلاف ، والعاشر عشرة آلاف ألف ألف (عشرة بلايين) وكلّ جيل أقلّ مما قبله جمالا وقامة وحللا وإشراق وجه وأرقى مما بعده .

فالمرأة الأولى ذات الجمال هى المجرّة التى ترى فى الليالى المظلمة مستطيلة فى السماء كسحابة بيضاء لبنية ، وهذه أصل جميع الشموس ومنشؤها ومستقرّها ومستودعها ، وهى شموس لانهاية لعددها بعدت عن الأبصار وتباعدت فى الأقطار حتّى صغرت فى العيون وتضامّت فصار كل ألف ألف ألف منها يكاد يكون ذرّة من اللبن فى أعين الرائين . فهذه المجرّة فيها هناك على أبعاد لايتصوّرها العقل أصل الشموس وأمّها التى عبرنا عنها بالمرأة الجميلة ، وحولها شموس كلّ شمس حولها شموس . وهكذا إلى أن ينقطع الفكر عن التصوّر ويقف العقل عن التعقل ، وآخر هذه الشموس مقابل للفتيات اللاتى فى الجيل

العاشر وشمسنا كفتاة منهن لايحصى عدد أترابها من الشموس كما كثر عدد فتيات ذلك الجيل . وإذا نسبت هذه الفتيات فى الحسن والقامة والحلى والحلل والإشراق إلى الأم الأولى كانت كالقردة بالنسبة إلى الإنسان بل أقل . فهكذا نقول فى الشمس المضيئة عندنا : إنها بالنسبة إلى الشمس الأولى كالليل بالنسبة للنهار . وفى الحجم كالذرة بالنسبة للجبل ؛ وأنت تعلم أن الشمس أكبر من الأرض ألف ألف مرة وثلثمائة ألف مرة ، وفيها من الجمال والبهاء ما يبهر العقول . إنها ترسل ضوءها على الأرض فينير السبل ويوضح المسالك ويفتح الأعين . فترى الصور المرسومة على سطح الهواء وخلال الأثير جلية واضحة ، وترسل الحرارة فيجرى الماء وينمو النبات والحيوان والإنسان . وتصبح الأرض مخضرة باجتماع الماء مع الشمس والعناصر والهواء . ثم إن سيرها وانتقالها من مكان إلى مكان بحساب متقن يعرف الناس السنين والحساب . فلا يضلون فى أحوالهم الزراعية والصناعية والمدنية .

هذه بعض محاسن الشمس . وهذه من عجائب جمالها الذى لا نسبة بينه وبين جمال الشمس الأولى ، وقد قلنا إن لها نظائر تسير معها حول شمس أخرى . وهذه الأخرى لها نظائر وهكذا . فما مقدار السنة التى تسيرها حول شمس أخرى فى الكواكب المسماة بالجاثى على ركبتيه ، وربما كانت آلاف آلاف من السنين المعلومة ، فكيف يكون جمال الشمس الأولى ومقدار عظمتها وبعدها ـ إنَّ فى ذلكَ لَذِكْرَى لأُولِى الألبابِ ـ وهذه الشمس التى هذا وصفها حولها السيارات الثمانية . وهى : نبتون . وأورانوس . وزحل ، والمشترى ، والمريخ ، والأرض ، والزهرة ، وعطارد . فأرضنا سيارة تسير حول الشمس ، فالشمس أم والسيارات فتيات حولها . كما أنها فتاة لأم قبلها ،

والأرض قد ولدت القمر فجرى حولها ، كما أن زحل والمشترى وغيرهما لهما أقمار تجرى حولها . والأقمار أقل جمالا وحجما وبهجة من السيارات . والسيارات أقل من الشموس . والشموس ترتقى طبقا عن طبق إلى الأمم التى فى المجرة . وما يقال فى هذه المجرة يقال فى مجرات أخرى - وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إلاَّ هُوَ - فتلك عرائس فى الجو سائرات . وجنود مصطفات إلى أن تقف العقول ، وهذه الشموس وحركاتها ونظامها لايتسنى لك معرفتها إلا بعلم العدد والحساب والهندسة وعلم الجبر والفلك - هُوَ الَّذى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِياءً وَالقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالحِسابَ ما خَلَقَ اللهُ ذلكَ إلاَّ بالحَقِّ يُفَصِّلُ الآياتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ - .

ولعلك تقول إنك ما قرأت مسئلة الشمس وأنها تدور حول شمس أخرى وهكذا دائرة بعد دائرة إلى أن ينقطع الفكر ويقف العقل . إنك لم تقرأ ذلك إلا من تعاليم الفرنجة ، وهم الذين قالوا : إن تلك الشموس أكبر من شمسنا ، فهل ورد فى ديننا ما يؤيد ذلك ؟ أقول : نعم ، بل ورد أن تلك العوالم فيها سكان أرقى من بنى آدم وهم صالحون . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إنَّ للهِ أرْضاً بَيْضَاءَ مَسِيرَةُ الشَّمْسِ فِيها ثَلاثُونَ يَوْماً مِثْلُ أيَّامِ الدُّنْيا ثَلاثِينَ مَرَّةً مَشْحُونَةً خَلْقاً ، لايَعْلَمُونَ أنَّ اللهَ تَعالى يُعْصَى فِي الأرْضِ وَلا يَعْلَمُونَ أنَّ اللهَ تَعالى خَلَقَ آدَمَ وَإبْلِيسَ » اهـ .

فاذا كانت تلك الأرض مسيرة الشمس ثلاثين فى ثلاثين تكون مسافتها تسعمائة يوم ، وهذا فوق الأفق ، ومثلها تحت الأفق ، وفيها قوم عقلاء صالحون ، فهذا يشير إلى ما ذكرناه - واللهُ يَهْدِى مَنْ

يَشاءُ إلى صِراطٍ مُسْتَقيم - إلى هنا قد أجملنا الكلام على العالم العلوى .

العالم السفلى

العالم السفلى ما فى البحر من مخلوق حىّ . وما على الأرض من معدن ونبات وحيوان وإنسان . فأما عالم البحر فقد جعل له العلماء فى هذه الأيام علما مستقلا ليطلع الناس على غرائبه . ومما قرأناه عنهم أنهم استخرجوا من قاع البحار على بعد أميال حيوانا يعيش فى الظلمات فى تلك الأصقاع الغائرة . وقد وجدوا له آلة للضوء إذا حركها أضاءت ما حولها ، وقد خلق لها على جسمها فى مقابلة تلك الآلة سطح قائم بزاوية مناسبة متى أشرق النور عكسه ذلك السطح فأبصر ذلك الحيوان المسالك البحرية ، فكأن ذلك الحيوان لما حرم ضوء الشمس خلقت له فى قاع البحار شمس خاصة به يفتحها متى شاء ، وأمامها سطح يعكس شعاعها فيرى المسالك والطرق - فَتَبارَكَ اللهُ أحْسَنُ الخالِقِينَ - .

وفى البحر سمك شفّاف سمين طوله نحو ثمانية قراريط ، وشحمه أبيض نقىّ يصيده سكان (ألاسكا) ويجففونه ثم يوقدونه من ذنبه فينير بلهب صاف شديد اللمعان . ومن السمك نوع ببحر الصين إذا أكله الإنسان أخذ يضحك حتى يموت ، وهذا السمك يختصّ به الوزراء والعظماء إذا حكم عليهم بالإعدام ، فيشترونه سرّا ، وبه يموتون من الضحك ، وحكومة الصين تمنع بيعه .

ومن عجائب البحر الدرّ والمرجان .

ثم من العالم السفلى عالم المعادن كالذهب والفضة والنحاس والحديد والخارصين والبلاتين والكبريت والزئبق والمغنيسيا والملح والزنك والرصاص وغيرها ، ثم الآثار العلوية من حوادث الجوّ وتغير الهواء

من النور والظلمة والحرّ والبرد وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض ثم الأنهار وما يكون من الغيوم والضباب والطلّ والندى والأمطار والرعود والبروق والثلوج والبرد والهالات .

عالم النبات

ومن العالم السفلى : عالم النبات . وله علم يعرف به اختلاف أنواعه وأشكاله وألوانه وطعومه وروائحه وأوراقه وأزهاره وثماره وحبوبه وبزوره وصموغه ولحائه وبنية تكوينه ونتاجه وتربيته لأولاده .

عالم الحيوان

وله علم يعرف به صنوفه وأنواعه وأجناسه وسكان البرّ منه والتراب والهواء والبحر كالأنعام والحشرات والطير والسمك ومعرفة تزاوجها وتوالدها ومستقرّها ومستودعها ، ويتبع ذلك معرفة تشريح الإنسان .

علم التشريح

يعرف منه أن أعضاء الإنسان ٢٤٨ عضوا ، وتعرف أوردته وشرايينه وأعصابه والدورة الدموية والدورة التنفسية والدورة الغذائية والدائرة العقلية والحواسّ الخمس ونظامها والقوى الخاصة التى فى الدماغ ، وتقدّم الإيماء إليها عند تفسير لفظ ربّ من (ربّ العالمين) وهى الحسّ المشترك والمخيلة والمفكرة والذاكرة والواهمة .
هذه هى بعض العلوم الطبيعية فى العوالم السفلية . وأما العوالم الإلهية فلها علوم خاصة بها تبحث فى أمر الملائكة كما ستراه فى تفسير القرآن المسمى (الجواهر) فى سورة البقرة عند قوله تعالى ـ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً ـ فسيظهر هناك إن شاء الله أن فى معنى الخلافة ما يفهم المقام من معرفة الله

والملائكة . وبهذه العلوم أيضا تعرف الأمور العامّة والمقولات وتقسم العلوم . انتهى الكلام على العالم السفلى وما بعده .

هذه هى العوالم العلوية والسفلية التى تضمنها لفظ (العالمين) والله هو المربى لها والمكمل لذواتها .

ألا فليعلم المسلمون فى مشارق الأرض ومغاربها أنهم لايحمدون الله حقّ حمده . ولا يشكرونه حقّ شكره إلا إذا درسوا هذه العلوم كلها وعرفوا ما تفرّع عنها وانتفعوا بها ونفعوا الناس بفوائدها ؛ وإذن يحقّ لهم أن يقولوا (الحمد لله ربّ العالمين) أما إذا بقوا على جهلهم ولم يعرفوا هذه العوالم ولا نظامها فليعلموا أن حمدهم لفظى وشكرهم ظاهرى . ولأضربنّ لك مثلا إذا أنت مدحت امرأ فى مجلس وكان فيه من هو أعرف به منك وسألك عن بعض صفاته فوجدك بها جاهلا ، فانه لاجرم يقول أنت به جاهل ، ثم يشرح صفاته فتقرّ له بالفضل عليك .

يحكى أنه فى زماننا قدم مؤلف عظيم على رجل من رجال الجرائد وكان هو وزوجه لايتركان مجلسا إلا مدحا هذا المؤلف فيه ولا ناديا إلا أثنيا عليه ، وهما فى كل واد يمدحان ويحمدان صنيع ذلك المؤلف وأنه أحسن إلى أمّته وأنالها شرفا عاليا وفخرا تالدا ؛ فلما أن حلّ بساحتهما وهما لم يرياه قبل ذلك فرحا به واستبشرا وأكرماه غاية الإكرام ، ولما قاما إلى بعض شأنهما نظر فوجد كتابه لم يفضّ ختامه ولا يزال ورقه متصلا غير منفصل ، دلالة على أنهما لم يقرءا منه حرفا ولم يعرفا منه كلمة ؛ فلما ودّعهما وانصرف أرسل لهما مقصا ليفهمهما أنه أدرك أن المدح والحمد كانا على جهالة عمياء ، وأن الثناء رياء ، وانقلب سروره غما ، وفرحه حزنا ، أفلا يكون نصيب المسلمين من ربهم نصيب ذلك الرجل وزوجته من المؤلف ؟

أفلا يقول الله للمسلمين : أنتم تحمدونني ولكنكم لاتعرفون من صفاتي وأفعالي إلا قليلا . فلأعطينكم من نعمي على مقدار ما عرفتم ، وأخذ يقص أرضنا معاشر المسلمين ويعطيها للأمم الأخرى التي درست العوالم . الله لم يرسل مقصا للمسلمين كما أرسل المؤلف . ولكنه أرسل رجالا وأمما قصوا من أرضنا وحرمونا منها ـ جزاءً وفاقاً ـ وقد آن أن يرجع مجدنا ويبزغ نجمنا ونعرف ربنا ، و ـ أنَّ الأَرْضَ يَرِثُها عِبادِيَ الصَّالِحُونَ ـ فأرض الجنة يرثها الصالحون لها بالعمل ، والعمل يتقدّمه العلم ، فكلّ أمَّة أعرف بهذا العالم فهي أحقّ به وأولى بالفضل وأعرف بالحمد .

أسباب الحمد . زيادة إيضاح لما سبق من قبل فيها

اعلم أن لكل حمد سببا كما أشرنا إليه آنفا ، فالجائع يقول (الحمد لله) الذي غذاني ، والظمآن يقول : الذي أرواني ، والفقير يقول : الذي أغناني ، والجاهل يقول : الذي علمني . وفي القرآن على لسان إبراهيم عليه السلام ـ الحَمْدُ لله الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الكِبَرِ إِسْمَعِيلَ وإِسْحَقَ ـ وفيه أيضا على لسان يوسف عليه السلام ـ وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ ـ وهذه الجملة حمد على نعمة الخروج من السجن ولمّ شمل أسرة يوسف عليه السلام .

وقال الشاعر الجاهلي لما أسلم :

الحمد لله إذ لم يأتني أجلي حتى اكتسيت من الإسلام سربالا

فأما الحمد في هذه السورة فسببه أن الله مربي جميع العوالم ، فاذا قال إبراهيم الخليل : أنا أحمد الله لأنه أعطاني ولدا أيام كبري ، يقول المسلم في صلاته : إنه أثني على الله لأنه هو الذي ربي جميع العوالم من العلويات والسفليات .

إن إبراهيم يعرف نعمة الله فى ابنه . والجائع يعرف نعمة الله فى أكله . والمسلم يجب أن يعرف نعمة الله فى تربية العوالم . وليس معنى هذا أن يكون جميع المسلمين حكماء فلاسفة . وإنما المراد أن يكون فيهم طائفة تقوم بجديع العلوم كالفرنجة أو أكثر . ألا تراه يقول (إياك نعبد) ولم يقل أعبد للإشارة إلى أن المقصود الجماعة .

وإذا بقى المسلمون على ما هم عليه من الجهل بنظام الله فى العالم . فلا حظّ لهم من حمد الله وشكره إلا حظّ الجائع من النسيم . ولما عزّ الحامدون الحقيقيون الشاكرون العاقلون . قال الله ـ وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ـ .

سؤال وجوابه وضرب مثل لحال القرآن بما أبدع الله فى العالم

لعلك تقول : مالى أراك تحمّل الفاتحة ما لاتحتمل ، وتدخل فيها من العلوم ما لايعقل ، مع أن الناس يقرءونها ولا يلحظون ما تذكرون ويكرّرونها صباحا ومساء ، ولا يتهيأ لهم ما تصفون ، وإنما أنتم تقولون هذا استطرادا لااستنباطا ، وتطويلا لاتأويلا ، وتعليما لاتفسيرا ، وإكثارا لااستخراجا .

أقول : على رسلك واصغ لما ألقى عليك من مثل أضربه تذكرة لأولى الألباب : تأمّل حال الرجل الزارع وقد استصحب دابته وولده الصغير ، ولما وصل إلى الحقل رأى مهندسا للرىّ وعالما طبيعيا وحكيما إلهيا ، فهل ترى أن هؤلاء والحقل أمامهم متفقون فى الرأى متحدون فى الفكر ؟ كلا فان الدابة لاترى فى الحقل إلا حاجتها من البرسيم ليسدّ جوعتها . والصبىّ يتعالى عن الدابة فينظر إلى خضرة البرسيم والمزارع وترنحها يمينا وشمالا ، ويرى بهجة الزهر وجمال منظره وهبوب الرياح عليه . والفلاح يتعالى عن ذلك فينظر فى أمر الزرع والحصاد والمكسب والخسارة ورىّ الأرض وحساب المزارعين

وما شاكل ذلك . والمهندس يتعالى بنظره إلى نظام الرى العام في هذا الجدول وفى سواه من نظائره ، ويقارن المصارف والترع ببعضها ، ويتسع نطاق عمله حتى يشمل آلافا من المزارع ليحفظها من العطب ويحرسها من الهلاك . والعالم الطبيعى أو الزراعى يتأمل فى العناصر كيف تكون منها النبات ويحللها ويعرف وزنها بالنسبة لبعضها كما سيأتى فى سورة البقرة ، ثم يتولى عمل المناسبة بينها ويقول : إن السماد يكون على مقدار الحاجة ، فكل عنصر قل فى الأرض يعتاض عنه بآخر من السماد بوزن معلوم . ثم إن الحكيم الربانى يتعالى عن هذه الطبقات فيرى أن هذه النباتات كلها من عناصر أرضية اختلفت طعومها وروائحها وأثمارها ولحاؤها وأوراقها وأزدارها وأعمارها وبلدانها وطقوسها ومناخها ومنافعها الطبية والعناصر واحدة لاتتجاوز الثمانين عدا منبثة فى الأرض والهواء والماء ؛ ثم إن تلك العناصر ترجع إلى مادة واحدة وهى الأثير الذى يكون ضوءا وكهرباء وحرارة . ثم إن الجوهر الفرد الذى كان آخر آراء العلماء فيه أنه مكون من ذرات كهربائية ، منها الموجبة ، ومنها السالبة ، ولهما نواة حولها ذرات تدور كدوران السيارات حول الشمس . ثم يقول : إن هذه كلها مرجعها حكمة وراءها وقدرة وعلم وذات مدبرة وإله منظم ، وإلا فما بالنا نرى نظاما عاليا وحكمة باهرة - وأن إلى ربك المنتهى - . هذه هى النظرات فى الحقل ، فقس عليها نظرات الناس فى الفاتحة .

إن الفاتحة كلام الله ، والحقل وما فيه من الزرع فعل الله ، أفلا ترى أن تختلف الأنظار فى الثانى كما اختلفت فى الأول ؟ أو لست ترى أن حافظ القرآن الذى لايعنيه إلا أن يعيش به كالحمار يحمل أسفارا ، وكالجاموسة فى المثال المتقدم لم يعنها إلا البرسيم . أو ليس

العامّة الذين يفرحون بنغمات القرآن فى مآتمهم وأعراسهم أشبه بالصبيّ الذى راقه مناظر النبات وأزهاره ؟ أو ليس العابد الذى يخاطب ربه بالفاتحة ويثنى عليه ويتجه إليه بقلبه أشبه بصاحب الحقل المقبل على تنظيمه ؟ أو ليس المفسر للقرآن الناظر فى معانيه العامّة (وهو أرقى من العابد) أشبه بالمهندس الناظر فى سائر الحقول ؟ . أو لست ترى أن من يعرف هذه العوالم العلوية والسفلية ويدرك نظامها وجمالها ويعرف من كلّ فنّ طرفا أرقى من المفسر وأعلم منه ، وأنه أشبه بالرجل الطبيعى أو الزراعى الذى عرف نظام الزرع وتركيبه من العناصر ؟ . أو ليس الذى يحمل الأمّة على معرفة سائر العلوم فتكون راقية ذات مدنية ونظام وسعادة فى الدنيا لتحفظ كيانها وتصون بلادها وتستغنى عن غيرها وتمدّ الأمم بعلمها وصناعاتها فضلا عن أنه عرف تلك العلوم ؟ . أليس ذلك فى مثالنا كالحكيم الربانى فى المثال المتقدّم الذى وصل إلى الله من طريق الحكمة والعلم .

وبهذا فلتفهم قوله صلى الله عليه وسلم « يُقَالُ لِصَاحِبِ القُرآنِ اقْرأ وارْقَ ورَتّلْ كما كُنْتَ تُرَتّلُ فِي الدُّنْيا » فظاهره معلوم للناس والعامة . وحقيقته ما ذكرناه لك . ألا إنما ذلك العالم العظيم والملك الكبير فى الإسلام الذى يحملهم على معرفة العلوم والصناعات ليحفظوا مدنيتهم ، ويقيموا الوزن بالقسط ، ويكونوا خلفاء الله فى الأرض فى المثال الثانى . وذلك الحكيم العظيم الربانى فى المثال الأوّل الذى أدرك سر الخليقة بقدر طاقته . هذان وأمثالهما هم أولياء الله وخلفاؤه فى الأرض وخلفاء أنبيائه فـ ـ لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ العامِلُونَ . وفى ذلكَ فَلْيَتَنَافَسِ المُتَنَافِسُونَ ـ هؤلاء هم الذين يكونون فى أعلى الجنة ، وقد تركوا أدناها للجهلاء كما فى الحديث

« وَعِلِّيُّونَ لِأُولِى الأَلْبَابِ » فالجنة مفتاحها المعارف ، وفاتحة الكتاب فاتحة المعارف ـ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ ـ .

ها أنا ذا قد أبنت العوالم التي تولى الله تربيتها وترقيتها . وأنت تعلم أن التربية يعوزها أمران : الرحمة ، والشدّة . فاذا لم تكن رحمة ، أو عدم الجزاء والمكافأة بالإحسان والإساءة كانت التربية ناقصة . ولقد جعل الله الأمّ أقرب إلى الرحمة . والأب أقرب إلى الشدّة والمجازاة . فاذا فقد أحدهما ساءت التربية ؛ فأشار إلى الأوّل بقوله (الرحمن الرحيم) وإلى الثاني بقوله (مالك يوم الدين) أعني مالك الأمر في يوم الجزاء . أما الرحمة فقد عرفتها فيما تقدّم . وأما الجزاء فانه تابع للأعمال كما قال تعالى ـ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ـ ألا ترى أن الرجل الكاسل يصيبه المرض والفقر ويزدريه الناس . وهكذا من يكره الناس أو يؤذيهم ؛ وترى حكومات الأرض قاطبة نصبت القضاة وأقامت الجند وجعلت لها دورا للحبس ، وأخرى لإكرام الوافدين من الأقطار ، ووضعت القوانين والحدود ، وذلك سائر على نظام في مشارق الأرض ومغاربها .

ولما كان القانون البشرى يلحقه الخطأ لخلل فيه ، أو لضلال القضاة والحكام ، أو جهلهم جعل الله الجزاء الأوفى يوم القيامة ـ لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ـ فالله عزّ وجلّ مالك جميع الأمور ، محيط بالخلق في الدنيا والآخرة يثيب الطائعين والعاملين ، ويقهر العاصين والكاسلين ، ويذلّ الباغين إما في الدنيا وإما في الآخرة وإما فيهما معا ، وبهذا تمت التربية ونظم العالم . إن هذه الصفات التي حصرت الرحمة والملك في ذات

الله ، وأنه هو المربى للعوالم كلها المالك لها تحضر قلب القارئ والمصلى والذاكر فى الله تعالى . وتجعل الحمد خاصا به . فجميع المحامد التى يؤدها بها الناس للمحسنين راجعة إليه . لأنه المحسن الحقيقى وفوق الحمد يختص بالعبادة التى هى غاية الخضوع ؛ ومنه طريق معبد : أى مذلل . فكأن القارئ يقول : يامن اتصف بهذه الصفات التى يمتاز بها عما عداه (إياك نعبد) أى نخصك بالعبادة والخضوع فضلا عن الحمد ، فالنصف الأول من السورة أحضر فى قلب القارئ الصفات المميزة للربوبية ، فلما تمثلت فى ذهنه تلك العظمة صارت كأنها مشاهدة أمامه ؛ فالتفت عن الغيبة إلى الخطاب وكأنه يشاهده ويراه . وفى الحديث « اُعْبُدِ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ » ولن يكون ذلك إلا باستحضار صفاته العالية فى قلبه ؛ وإلى هنا وصل القارئ إلى آخر درجات التقرب وهو الخضوع والتذلل كما فى قوله تعالى - وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ - فلم يبق بعدها إلا السؤال والطلب من المتقرب إليه ، فقال (وإياك نستعين) فى أمورنا الدنيوية والأخروية كالصحة والغنى والمال والولد ؛ وأهم الحاجات أداء العبادات والهداية إلى الصراط المستقيم ، فكأنه يقول : نحن نعبدك ولن نقدر على أداء العبادة إلا إذا أعنتنا . ولما طلب العبد الاستعانة بالله كأنه قيل له : ما أهم ماتستعين فيه ؟ فقال العبد (اهدنا الصراط المستقيم).

والهداية دلالة بلطف وهى على أقسام : الأول هداية الغريزة التى اهتدى بها الحيوان فى غدوه ورواحه ، والطفل لرضاع أمه ، والنحل لبناء المسدسات التى يجمع فيها العسل بنظام يحار فيه المهندسون. الثانى هداية العقلاء الأولية بأن يميزوا بين الحسن والقبيح والجمال وضده ، وتعرف الأوليات ومبادئ العقول التى يرجع إليها فى العلوم ؛ مثل الكل أعظم من الجزء ، والضدان لا يجتمعان . الثالث معرفة

العلوم وفهمها والتصرّف فى أصولها وفروعها . والرابع الملكة الراسخة بحيث تحضر العلوم والمسائل التى عرفت أنى شاء العارف . ويتبع ذلك قوّة التصرّف والحذق فى الأمور والإلهامات وسداد الرأى والوحى الخاصّ بالأنبياء . والمراد بالهداية هنا هذا الأخير ، وماقبله ، فإما أن يقال أدمنا على الهداية . وإما أن يقال زدنا فى مراتبها لنرتقى إلى أعلاها وننال الزلفى لديك والقربى . ويقرب من هذا قوله تعالى - يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ - والمراد بالفرقان نور يقذفه الله فى قلب العبد يفرق به بين الحقّ والباطل ، والصراط المستقيم : هو المستوى وهو مثله فى التذكير والتأنيث ؛ ثم أبان ذلك الصراط فقال (صراط الذين أنعمت عليهم) من النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين ، وهم عظماء كل أمة وأشرافها ؛ أو الذين أنعمت عليهم من الأمم وهم المسلمون (غير المغضوب عليهم) وهم اليهود (ولا الضالين) وهم النصارى . وتبيانه أن يقال : إن الصراط المستقيم يراد به هنا الطريق الوسط .

وهو فى علوم الأخلاق العفة التى هى وسط بين الوقوع فى الشهوات والفسق والفجور وبين الجمود والبخل والإمساك والشحّ .

والشجاعة : وهى وسط بين التهوّر والطيش والظلم ، وبين الجبن والخوف ، والحزن والجزع وأمثالها .

والحكمة : وهى الوسط بين الجهل والغباوة والبلادة ، وبين المكر والخداع والاحتيال والطيش فى الآراء .

والعدل : وهو المساواة بين هذه الأمور .

وقد فرّع العلماء على هذه الأربع فروعا شتى تربو على المائة ، وكلها داخلة فى الصراط المستقيم وهو الوسط ، وما جاوز الوسط ، فإما

إلى الزيادة فهو التهوّر والطيش والتبذير وما أشبهها . وإما إلى النقص كالجبن والبخل والخوف وما أشبهها . والمسلمون وسط فى أمر سيدنا عيسى عليه السلام إذ يعتقدون نبوّته . أما اليهود فانهم قد غضب الله عليهم لأنهم جعلوه ابن زانية . وأما النصارى فانهم أفرطوا فى اعتقادهم وجاوزوا الحدّ فى دينهم وغلوا فى أمر المسيح فقالوا إنه إله . فهؤلاء هم الضالون فى أمر عيسى . فاعتقاد المسلمين صراط مستقيم ، واعتقاد اليهود تفريط . واعتقاد النصارى إفراط : أى مجاوزة الحد . وقد قلنا إن الحكمة وسط . فلا تغالى كما قالت النصارى ولا جمود وإنكار كما قالت اليهود .

ولقد ورد تفسير الصراط الخ بهذا المعنى مرفوعا إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم . وهذا الذى قلناه توجيهه . وكأنه عليه الصلاة والسلام أراد بذلك ضرب مثل للصراط المستقيم ، وإلا فهذا الوسط فى الاعتقاد فى مسئلة المسيح يماثله مسائل كثيرة ، كالكرم والشجاعة والعفة والصدق كما تقدم فافهم . وقوله (غير المغضوب عليهم) بدل من الذين أنعمت عليهم ، و « لا » فى قوله (ولا الضالين) للتأكيد . وقرئ ـ غير الضالين ـ .

واعلم أن النعم : إما مال ، وإما أصحاب وأهل وأعوان ، وإما صحة بدن ، وإما عقل وحكمة وصدق روية . وكل نعمة مقدمة لما بعدها ، فأعلاها العقل والحكمة ، وأدناها المال الذى لابدّ منه لحفظ الثلاثة بعده من الأصحاب والصحة والعقل ؛ والمراد بالنعمة هنا أعلاها التى تقوى وتبقى بما قبلها .

وقد يراد بالمنعم عليهم : المطيعون . وبالمغضوب عليهم : العصاة ، وبالضالين : الجهال .

واعلم أن المنعم عليهم هم الأنبياء وورثتهم والمخلصون من بنى آدم

وهم الذين نصبوا أنفسهم لهداية الناس وإرشادهم . وكأنهم آباء والناس أبناؤهم . ويتشبهون بالله فى أفعالهم وأقوالهم ، ويقودون الأمم إلى سبيل الرشاد . ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، ويقال : إن غاية الحكمة التشبه بالله ، فيعرفون نظام العالم ، وحكمة الخالق . ويتركون آثارا فى البرايا ، ويتحملون ما ينالهم من الآلام فى سبيل إسعاد الأمم فينالون أجرهم مرتين ، فهم فى الآخرة مكرّمون وفى الدنيا مذكورون بالثناء والإكرام ؛ تشتاق إليهم النفوس ، وتحنّ إليهم القلوب . وتطمئنّ إليهم الأفئدة ، وتذكرهم الأجيال .

وأضرب لك مثلين : الأوّل ما جاء فى القرآن فى سورة والصافات فانظر كيف ابتدأها بذكر أهل الجنة والنار وتوبيخهم فقال - وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الأَوَّلِينَ - وأقام عليهم الحجة فقال - وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ - وأخذ يذكرهم بالثناء واحدا واحدا ، فذكر نوحا بالثناء ، ولما انتهى من القصة قال - سَلامٌ عَلَى نُوحٍ فِي العَالَمِينَ - ثم ذكر إبراهيم وتاريخه وما لقى من المحن فى قومه ، وختمها بقوله - سَلامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ - ثم ذكر موسى وهرون ونجاتهما من فرعون وقومه ، ثم ختمها بقوله - سَلامٌ عَلَى مُوسَى وَهَرُونَ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ - ثم ذكر إلياس وكيف كان يدعو قومه ، وختمها بقوله - وتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ سَلامٌ عَلَى إِلْيَاسِينَ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ - ثم ذكر لوطا ونجاته ويونس ؛ وختم السورة بقوله - سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ العِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ . وَسَلامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ . وَالحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ - . فانظر كيف ذكر المرسلين بالثناء ؛ فمن كان منهم أقوى عزما وأطول بلاء قال فيه

ـ وتركنا عليه فى الآخرين سلام على ـ فلان . فكأن الله عزّ وجلّ يجعل الثناء الباقى فى الأعقاب للمجاهدين الأبطال من المكافآت للفضلاء، وهذا هو الذى ينبغى أن يكون فى أمّة الإسلام . يعلّمنا الله بهذا أن نعلن فضل الفضلاء . وعلم العلماء . وحكمة الحكماء وجهاد الأبطال ، وننشر فضائلهم ليقلدهم مَن بعدهم . وليؤخذ عنهم كما تفعل الأمم الغربية اليوم بكل مشهور الفضل . ولو كان سفيه النفس سيئ الخلق ضيق الفطنة . ويذكرون علمه ليقتدى به الناشئون .

ولعلك تقول : ما للفاتحة ولسورة الصافات ؟ أقول : على رسلك إن الفاتحة تسمى أمّ الكتاب . والمنعم عليهم والمغضوب عليهم ورد ذكرهم فى القرآن . فهل هذه القصص واردة لغير غرض أم للهو واللعب، أم لمجرّد الحكاية ؟ كلا . فالمنعم عليهم مثنىّ عليهم . والمغضوب عليهم مذمومون ، وليس للمسلمين أن يعيشوا خامدين جامدين أمام القرآن والأمم الغربية فعليهم أن يتبعوا القرآن ، فمن رأوه يبذل مهجته فى خدمة الأمة ، أو ينشر العلم ، أو يضحى ماله فليرفعوا قدره . بهذا أمرهم الله ، وإلا فكيف يقول فى سورة أخرى ـ وَاذْكُرْ فى الكِتابِ إبْرَاهِيمَ ـ الخ ـ وَاذْكُرْ فِى الكِتابِ إسْمَاعِيلَ إنَّهُ كانَ صَادِقَ الوَعْدِ ـ ويقول ـ وَاذْكُرْ فِى الكِتابِ مُوسَى إنَّهُ كانَ مُخْلَصًا . وَاذْكُرْ فِى الكِتابِ مَرْيَمِ ـ أليس هذا أمرا بذكر الفضلاء المخلصين ونشر محاسنهم . فليقم بذلك المسلمون فى مشارق الأرض ومغاربها ، وإلا فليبقوا جامدين جاهلين . إلى هنا انتهى المثل الأوّل للمنعم عليهم .

المثل الثانى ماقرأناه فى كتب المتقدّمين عن اليونان أنّ (سولون) الحكيم المولود سنة ٦٤٠ ق م ، المائت سنة ٥٥٩ ق م لما خرج من

أثينا مغاضبا لقومه إذ عصوا نصيحته أرسل إليه الملك (كرسيوس) خطابا . فلما قدم عليه حقر ما رآه من الزينة والزخرف ، فقال له الملك : من أسعد الناس فى نظرك ، فقال له : الملك طيلوس كان محبيا إلى أهل أثينا مسبغا النعم عليهم ، فلما أن مات حزنوا عليه كلهم أجمعون . فتعجب كرسيوس من سولون وقال : فمن بعده ؟ قال : أخوان شابان كانا شجاعين أكرما أمّهما ، ولقد كانت تغدو كل يوم للصلاة فى المعبد ، فاتفق أن سائق العربة لم يوافها يوما ، فجرّ الأخوان عربتها بدل الثورين ، فدعت الله لهما فعاشا قريرى العين وأحبهما الناس حبا جما ، ولما ماتا حزن عليهما أهل أثينا ، فقال الملك : أفلا تعدّنى سعيدا يا سولون ؟ فقال : أنت أسعد من كثير من الناس ، ولكن انتظر العاقبة . فغضب الملك من سولون وأبعده . ثم دارت رحى الحرب بين الملك وملك العجم ، فوقع كرسيوس فى الأسر ، فأمر بإحراقه وأوقدت النار ، فصاح كرسيوس قائلا : سولون سولون ، فسأل فيروس ملك العجم ما معنى هذا ، فقصّ عليه القصص ، فرقّ قلب فيروس وأنعم عليه وواساه اه .

وإنما ذكرت هذا المثل ليعلم المسلمون فى أقاصى الأرض أن الذين أنعم الله عليهم بحبّ الإخوان والصبر على أذاهم ، والزهد فى الدنيا ، ونشر الفضيلة والعلم ، ممدوحون على كل لسان أينما كانوا ، وأولئك المنعم عليهم شموس وأقمار ، فانظر كيف ذكر سولون أن السعيد هو الملك طيلوس ، لأن أهل أثينا حزنوا عليه لعموم نفعه لهم ، وأن الشابين اللذين أكرما أمهما أحبهما الناس ، ولما ماتا حزنوا عليهم لأن المحسنين محبوبون ، والنفوس الشريفة يشرق ضوؤها فى الأرض وتلك النفوس العالية إنما جاءت إلى الأرض لتحرس أهلها وتخدمهم

فاذا أدّوا ما خلقوا له سارت بذكرهم الركبان . فما أجمل العلم وما أجمل الحكمة .

الفاتحة أمّ القرآن

هذه السورة تسمى فاتحة الكتاب ، وتسمى سورة الحمد ، وتسمى أمّ القرآن . وأمّ الكتاب ، والسبع المثانى لأنها تثنى فى كلّ صلاة . وتسمى الوافية والكافية .

ولقد يعجب القارئ من تسميتها بأم القرآن وبأمّ الكتاب وبالكافية وبالوافية ، وكيف تقرأ فى كل صلاة ، فليعلم ذو اللبّ أن الذى يتلى على اللسان دائما ويتلوه الجاهل والعالم سرّا وجهرا يصبح فى أنفس التالين من المألوفات التى لايسعى إلى شىء وراءها ، وتصبح كالسمع والبصر والعقل والجسم الإنسانى عند الجهلاء . فالناس لما رأوا أجسامهم والأنهار والسماء والأرض لم يظنوا فيها عجائب ولا غرائب لأنها مكشوفة أمامهم ، معروضة كلّ حين كالعالم فى بلده ، والنبىّ فى قريته . فهكذا فاتحة الكتاب يقرؤها المسلمون فى مشارق الأرض ومغاربها ، وأكثرهم جاهلون لايعقلون . ولذلك داستنا الفرنجة فقتلت أبناءنا واستحيت نساءنا ونحن فى غفلة معرضون .

واعلم أن العلماء هم الذين يعرفون أسرار الأشياء ، فعالم النبات وعالم الطبّ يعقلان حكم النبات وعجائب الجسم . فكذلك هنا المفكرون فى القرآن ، الدارسون للعلوم حديثها وقديمها هم الذين يعقلون الفاتحة وعلومها .

فاعلم أن الفاتحة تشتمل على الإشارات لجميع ماورد فى القرآن ، والذى ورد فى القرآن عشرة علوم عامّة كما قاله الغزالى ، وكل علم تحته علوم . الأوّل : معرفة ذات الله . الثانى : معرفة صفاته ، فأما

الذات فبالتقديس والتنزيه، فهو الذى ليس كمثله شيء ؛ وأما الصفات فانه قادر ومريد وعالم وحيّ وسميع الخ . الثالث : أنه خالق العالم ومبدعه . وهو الذى رفع السموات وبسط الأرض . الرابع : ذكر المعاد من الجنة والنار والثواب والعقاب . الخامس والسادس : ذكر الصراط المستقيم بترك الأفعال المخزية والأخلاق المزرية ، وبالتحلى بفضائل الأعمال والأخلاق الشريفة ونشر الفضيلة . السابع : ذكر المنعم عليهم ومدحهم والثناء عليهم . الثامن : ذكر الظالمين والطاغين الكافرين . التاسع : ذكر محاجة الكفار . العاشر : ذكر حدود الأحكام . هذه هى العلوم التى ورد ذكرها فى القرآن . والفاتحة قد اشتملت على ثمانية منها على رأى الإمام الغزالى .

الأول : ذات الله تعالى فى قوله : بسم الله .

الثانى : الصفات بذكر (الرحمن الرحيم . مالك يوم الدين) فان الرحمة والملك يستلزمان القدرة والإرادة والعلم ، وهى من الصفات واردة فى أكثر سور القرآن كقولة تعالى ـ المَلِكُ القُدُّوسُ السَّلامُ المُؤْمِنُ المُهَيْمِنُ ـ الخ .

الثالث : علم الأفعال ، وهو العلم الذى أشرت إليه فيما تقدّم المندرج فى قوله (ربّ العالمين) المنطوى تحته أكثر العلوم .

قلت : إن العالم قسمان : علوىّ ، وسفلىّ ، ودخل فيهما أكثر العلوم لأنها كلها أفعال الله تعالى الداخلة فى آثار رحمته وتربيته للعالمين . ونقول الآن أيضا فوق ما تقدّم : إن العلوم الرياضية والعلوم الطبيعية اللتين دخلتا فى تربية العالمين يلحقهما صناعات كثيرة ، فمنها علم البنكامات (آلات قياس الزمن كالساعات المعروفة) وعلم جرّ الأثقال كقطر السكك الحديدية ، وعلم إنباط المياه ، وعلم الآلات الحربية كالمجانيق وغيرها ، والغازات الخانقة الموقظة للأمم

النائمة فأيقظت أهل الشرق من سباتهم . وهذا من عجائب التربية ؛ وكالمدافع الفتاكة بالغافلين . وعلم المرايا المحرقة . وعلم عقود الأبنية لتنضيد المساكن وشق الأنهار . وعلم المناظر لمعرفة أشكالها وأوضاعها، وعلم مراكز الأثقال . وعلم المساحة . وعلم الطب . وعلم الزراعة ؛ وهذان الأخيران يتبعان علوم الطبيعة . وأما ما قبلهما فعن الرياضيات تتفرع . وكلها داخلة فى تربية العالمين .

واعلم أن جميع الصناعات ما كان منها وما يكون ترجع إلى هذه الموجودات ؛ فاذا رأيت النجار والحداد والخراط والزجاج والجوهرى والصيرفى ، فاعلم أن الأول تابع لعلم النبات لأن عمله فى الخشب ، والثانى لعلم المعادن لأنه فى الحديد ، والثالث فى النبات كالأول ، والرابع فى المعدن لأنه فى الزجاج ، والزجاج رمل مخلوط ببعض المعادن ، والخامس والسادس فى المعادن ، لأن الخامس فى الجوهر المستخرج من الصدف ، والسادس فى الذهب والفضة . هذا ما أردت ذكره فى العلم الثالث وهو علم الأفعال ، وقد دخل تحته أكثر العلوم والصناعات .

العلم الرابع : ذكر المعاد ، وفيه الجنة والنار والنعيم والجحيم والثواب والعقاب ، والقرآن طافح بذلك ؛ وهو هنا فى قوله (مالك يوم الدين) .

العلم الخامس والسادس : الصراط المستقيم ، وهو قسمان : الأول ترك الضلال والفسوق والعصيان كالكذب والخيانة والزنا . والثانى التحلى بالطاعات كالكرم والعلم والمساعدة ونشر العلم وما أشبه ذلك.

العلم السابع : قصص الأنبياء والصالحين والمؤمنين والفضلاء ، وهو داخل فى قوله (الذين أنعمت عليهم) .

العلم الثامن : قصص المغضوب عليهم والضالين ، وفى القرآن كثير من قصص الغاوين وتاريخ أعمالهم التى أورثتهم البوار والخسار ؛

هذه هى العلوم التى اشتمل عليها القرآن ودخلت فى ضمن الفاتحة ، فهل إذا سميت أمّ القرآن أو الكافية أو الوافية لا تكون بذلك حرية ؟ بلى فالفاتحة أمّ القرآن بما بيناه ، كافية بما أبرزناه ، وافية كما قررناه ؛ فتعجب من المسلمين . واعلم أن القرآن أشبه بضوء الشمس الذى يجرى فى الجوّ ولا يظهر إلا على سطح الأرض أو على جسم قابل ، فأمّا الهواء فإنه لا يعكس ضوءها ولا يراه الطائر فى جوّ السماء ، كذلك الأفئدة الخالية من العلم والحكمة يمرّ بها القرآن وأمّ القرآن ولا تشعر بمعانيها والضوء المشرق فيها وهم يقرءونها صباح مساء . كذلك الطائر فى الجوّ السائح فى مخارفه حتى إذا قرأ القرآن من يعرفه فهمه حقّ فهمه .

واعلم أن هـذا الزمان هو الصالح لظهور المقصود من القرآن فى بلاد الإسلام ـ وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ـ .

ولم يبق من العلوم التى فى القرآن إلا محاجة الكفار ، ويقوم مقامه علم التوحيد وعلم الأحكام الفقهية التى يقصد بها حفظ النظام الاجتماعى للأمة ؛ وإنما احتيج لهذين العلمين ، لحفظ العقائد ولحفظ نظام المجموع . ثم إن هذا التقسيم الأخير مستمدّة أصوله من كلام الإمام الغزالى مع زيادة وتصرّف .

ومن هذا تعلم أن علم ذات الله تعالى وصفاته وأفعاله وهى العلوم المعروفة اليوم والصناعات مقدّمات على علم الفقه وعلم التوحيد . والأمم الإسلامية اليوم أحوج إلى معرفة الكائنات لمعرفة الله ، ولبقائهم فى الدنيا ليزاحموا الأمم الغربية ، وهى أهمّ من معرفة الفقه وعلم التوحيد . وجميع هذه العلوم فرض كفاية ، ولكن الفقه والتوحيد لم يظهرا ظهورا جليا فى الفاتحة .

اللهمّ إلا فى العبادات ، أما الفقه فيما عدا ذلك فلم تشتمل عليه والمسلمون يجب عليهم النبوغ فى علوم الكائنات لعناية القرآن بها والفاتحة خصوصا المدخولها ضمن تربية العالمين .

فاذا سمعت قول القائل إن سرّ القرآن فى الفاتحة ، وسرّ الفاتحة فى البسملة ، وقرأت الحديث المتقدّم وهو قوله عليه الصلاة والسلام لأبىّ بن كعب « ألا أُخْبِرُكَ بِسُورَةٍ لَمْ يَنْزِلْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإنْجِيلِ وَالقُرآنِ مِثْلُهَا ، ثُمَّ قَالَ : هِيَ فَاتِحَةُ الكِتَابِ وَهِيَ السَّبْعُ المَثَانِي وَالقُرْآنُ العَظِيمُ » ثم قرأت ما كتبناه بإمعان أدركت السرّ المصون وتجلّت لك عظمة الفاتحة . وعرفت معنى قوله صلى الله عليه وسلم فى الفاتحة « إنّها القُرآنُ العَظِيمُ » وعسى أن يكون فتح لك باب قولهم : سرّ القرآن فى الفاتحة ، وسرّ الفاتحة فى البسملة .

فمن هذا الطريق فلتسر ، ولتعلم أن ما كتبناه شذرة مما نعلمه ، ثم مانعلمه ذرّة من علم العلماء ، ثم علم العلماء ذرّة من علم الله عزّ وجلّ فتعجب للنبوّة وحكمتها وعلمها الواسع . إن هذا يفتح لك أبوابا تدخل منها إلى سرّ عظمة الفاتحة ، وسرّها أنها سبع آيات تؤدّى معنى ستّ آلاف آية ، وهى جملة القرآن كله تقريبا .

ثم إن خروج الفقه والتوحيد من ضمن الفاتحة ، وهو رأى الإمام الغزالى ، ولكن عسى أن يكونا ضمن الصراط المستقيم ، أو التربية للعالمين ولو بطريق التبعيّة ، فتأمل فيما كتبناه فعسى أنك فى غضونه تلقاه .

هذا ما فتح الله به ، وأردت إثباته فى تفسير الفاتحة ، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم .

موازنة فاتحة الكتاب بفواتح البلغاء وأصحاب المعلقات

لقد سبق الكلام على ما فى الفاتحة من الإشارة إلى العلوم ، وما تضمنت من الحكمة .

فلنذكر الآن نبذة مما تضمنت من البلاغة لتكون تذكرة وتبصرة لذى لبّ . وإنما قدمنا الكلام فى العلوم لأنها أعمّ وأهمّ وأدعى إلى رقىّ الأمم الإسلامية ، وأدنى إلى حاجتها وأقرب إلى سعادتها فنقول :

تأمَّل أيها العاقل الفطن ، وانظر بعقلك وإياك والتقليد ، بل ليكن نظرك عقليا وفهمك نفسيا ، واحذر أن تكون إمَّعة ، فها أناذا سأتلو عليك من أقوال الشعراء فواتح المعلقات وما شاكلها ، لتوازن بصفاء ذهنك ونور عقلك وصادق سريرتك بينها وبين فاتحة الكتاب لتعرف الفرق بين كلام الوحى وكلام الشعراء الذين كان لهم القدح المعلى فى سوق عكاظ وذى المجنة وذى المجاز ، وهم الخافضون الرافعون بذمِّهم ومدحهم كامرئ القيس وطرفة بن العبد وزهير ابن أبى سلمى ولبيد بن ربيعة ، ومن على شاكلتهم ممن طأطأت لهم الرءوس وخلا لهم الجوّ ، وخشعت لهم الأصوات ، وذلَّت لهم الرقاب ، وكانوا شموس الجماعات وسادات الشعراء .

إن لاوحى لسمة ظاهرة ، وعلامة بينة ؛ ألا ترى أنه ينحو منحى الأمور العامَّة ، ويتعالى عن الجزئيات ومحقرات المقاصد .

فأما كلام الشعراء فى فواتحهم ، فهاك مقالَ امرئ القيس بن حجر ابن حارث ، إذ ابتدأ قصيدته المعلقة وهى فاتحته ، فوصف أنه بكى واستبكى على حبيبته ومنزلها الذى بسقط اللوى بين الأماكن الأربعة وهى الدخول وحومل وتوضح والمقراة ، فقال :

قِفا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَى حَبِيبٍ وَمَنْزِلِ
بِسِقْطِ اللِّوَى بَيْنَ الدخُولِ فَحَوْمَلِ

فَتُوضِحَ فالمِقْرَاةُ لَمْ يَعْفُ رَسْمُها

لِمَا نَسَجَتْها مِنْ جَنُوبٍ وَشَمْأَلِ

وطرفة بن العبد بن سفيان كان فاتحة قصيدته أن قال : إن خولة محبوبتى لم يبق لها إلا آثار الديار الخفية التى صارت كآثار الوشم فى ظاهر اليد ، وهذه الآثار فى موضع وهو برقة ثهمد ، وهى مكان لبنى دارم ، إذ قال :

لِخَوْلَةَ أطْلالٌ بِبرْقَةِ ثَهْمَدِ

تَلُوحُ كَبَاقِى الوَشْمِ فِى ظاهِرِ اليَدِ

وزهير بن أبى سلمى من الطبقة الأولى من شعراء الجاهلية كانت فاتحة قصيدته أن قال :

أمِنْ أُمِّ أوْفَى دِمْنَةٌ لَمْ تَكَلَّمِ

بِحَوْمانَةِ الدَّرَّاجِ فالمُتَثَلَّمِ

أمّ أوفى : كنية محبوبته ، والدمنة : آثار الدار وما فيها من البعر والرّماد وغيرها ، والحومانة : ماغلظ من الأرض ، والدرّاج والمتثلم : موضعان من العالية .

يقول : هل من منازل محبوبتى أمّ أوفى تلك الدمنة التى سألتها فلم تجبنى ؟

ولبيد بن ربيعة العامرى من الطبقة الثانية من شعراء الجاهلية ، كانت فاتحة قصيدته أن قال : اندرست ديار محبوبتى ، وهى ما تحلّ فيه وتقيم ، وهى بالمكان الذى يسمى منى ، وقد توحش الموضعان اللذان فيهما وهما الغول والرجام ، إذ قال :

عَفَتِ الدّيارُ مَحَلُّها فَمُقامُها بِمِنًى تأبَّدَ غَوْلُها فَرِجامُها

وعمرو بن كلثوم كانت فاتحة قصيدته أن قال لجاريته : قومى من نومك واسقينى الخمر أوّل النهار بقدحك العظيم ، ولا تدّخرى

عنى شيئا من خمرة القرية المسماة الأندرين من قرى الشام كثيرة الخمر جيدته ، إذ قال :

ألا هُبِّى بِصَحْنِكِ فاصْبَحِينا
وَلا تُبْقِى خُمُورَ الأنْدَرِينا

وعنترة بن شداد العبسى يقول : ما ترك الشعراء شيئا يرقع إلا رقعوه ، أى ما تركوا فنا من فنون الشعر إلا سلكوه ، ثم قال : لم أعرف دار محبوبتى لطول عهدى بها إلا بعد عناء شديد ، إذ قال :

هَلْ غادَرَ الشُّعَرَاءُ مِنْ مُتَرَدَّمِ
أمْ هَلْ عَرَفْتَ الدَّارَ بَعْدَ تَوَهُّمِ

والحارث بن حلزة اليشكرى قال فى فاتحة معلقته فى حضرة الملك عمرو بن هند : أعلمتنا أسماء بقرب ارتحالها فشقّ علينا ، ومن المقيمين من يمَلّ قربهم ولكن أسماء ما مللناها ، إذ قال :

آذَنَتْنا بِبَيْنِها أسْماءُ رُبَّ ثاوٍ يُمَلُّ مِنْهُ الثَّوَاءُ

والنابغة الذبيانى ، وهو زياد بن معاوية كانت فاتحة قصيدته أن قال :

يا دَارَ مَيَّةَ بالعَلْياءِ فالسَّنَدِ
أقْوَتْ وَطالَ عَلَيْها سالِفُ الأمَدِ

العلياء : المكان المرتفع ، والسند : حيث يسند إلى الجبل : أى يرقى ، وأقوت : خلت . والأمد : الدهر .

يخاطب دار محبوبته مية متوجعا متأسفا على ارتحالها عنها وابتعادها عنه .

والأعشى ميمون بن قيس بن جندل كانت فاتحة قصيدته أن قال :

ألَمْ تَغْتَمِضْ عَيْناكَ لَيْلَةَ أرْمَدَا
وَبِتَّ كَما باتَ السَّلِيمُ مُسَهَّدَا

أرمد : أى رجل أرمد ، والسليم : اللديغ ، والمسهد : الذى شرد عنه النوم . يقول : إنه أرق ليلة فلم تغتمض أجفانه كالأرمد الذى لايطيق إطباق أجفانه من حرّ ما بها من الألم ولم ينم كأنه لديغ .

وعبيد بن الأبرص الشاعر الجاهلى أحد المعمَّرين ، يقال إنه عاش عشرين ومائتى سنة ، كانت فاتحة قصيدته أن قال :

لَيْسَ رَسْمٌ عَلَى الدَّفِينِ بِبالى
فَلِوَى ذِرْوَةٍ فَجَنْبَىْ ذِيالِ

الدفين : واد قريب من مكة ، واللوى : منقطع الرمل ، وذروة : واد لبنى فزارة ، وذيال : رملة أخرى .

يقول : إن الدفين والذروة وذيالا هى منازل الأحبة ، لها آثار ظاهرة ورسوم شاخصة ، تذكرنا ما سبق لنا من لذيذ العيش .

فها أناذا أتيت لك بفواتح لعشرة من فحول شعراء الجاهلية ، وهل خرجت فواتحهم عن آثار الديار وفراق المحبوبة والتحسر والتوجع عليها ، وذكر سهر العين ورمدها ، وشرب الخمر بالقدح ؟ وهل رأيت إلا مدارا واحدا داروا جميعا فيه ، أو ليست الفواتح يكاد يتحد معناها وإن اختلف مبناها ؟ وهل ترى هذه المعانى التى طرقوها فى فواتحهم رافعة رأس الإنسانية ، أو بانية لها صرحا ، أو شائدة لها ذكرا ، أو ناظمة لها عقدا ، أو مربية لها أمة ، أو سانة لها قوانين ؟ كلا ، وإنما هى كلمات محدودات فى معانى ضئيلات يذكرها الفتى أيام صبوته ولا تبقى له أيام كهولته ، لم تخرج عن مداعبات غرامية وأنات شوقية ، قد يقولها الشاعر تكلفا لاغراما واتباعا لاابتداعا ، واحتذاء لاابتداء . فلعمرى لقد بهر العرب وسحرهم أن سمعوا هذه الفاتحة ، فقيل لهم : أيها الناس تبركوا باسم إلهكم الرحمن الرحيم ،

ولا تتنزلوا إلى صغائر الأمور بمدح الملوك ، واربئوا بأنفسكم عن ذلك فاحمدوا من رفع السماء وبسط الأرض واطلبوا منه الهداية .

أقول : أيها الذكيّ اللبيب بمثل هذا فلتعرف البلاغة فى القرآن ، وبهذه الطريقة وأمثالها تزن كلام القرآن وكلام العرب ، وقد مهدت لك الطريق وبسطت لك السنن فى البلاغة . فانظر فى أوائل السور وأوائل قصائد الجاهلية مثلا . وكذلك نمط القرآن فى المعانى والمقال ونمط كلام شعرائهم . وهذا هو النمط الذى جرى عليه العرب فى تعظيمهم القرآن .

ألا ترى كيف يقول بعض سادات قريش لما انطلق إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليفتك به ، فسمعه يقرأ قوله تعالى ـ حمٓ تَنْزِيلُ الكِتابِ مِنَ اللهِ العَزِيزِ العَلِيمِ ، غافِرِ الذَّنْبِ وَقابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ العِقابِ ذِى الطَّوْلِ ـ وكان ذلك فى صلاة المغرب فلم يصبه بأذى ، ورجع إلى قومه قائلا : والله لو كان من كلام العرب لعرفناه ، وإن أسفله لمغدق ، وإن أعلاه لمثمر ، وإنه يعلو ولا يعلى عليه الخ .

وتأمّل فى قصة إسلام عمر رضى الله عنه أن رجلا من قريش لقيه فى بعض طرق مكة فقال : أين تذهب إنك الصُّلب القوىّ فى دينك ، وقد دخل عليك هذا الأمر فى بيتك : (أى دين الإسلام) قال : وما ذاك ؟ قال : أختك قد صبأت (خرجت عن دينك) فرجع مغضبًا فقرع الباب على أخته ، فدخل عليها وقال : يا عدوّة نفسها قد بلغنى عنك أنك صبأت ، ثم لطمها لطمة شجّ بها وجهها ، وأمسك بلحية زوجها سعيد بن زيد وضرب به الأرض ؛ ولما رأت أخته الدم بكت وغضبت وقالت : أتضربنى يا عدوّ الله على أن أوحد الله ، لقد أسلمنا على رغم أنفك يا ابن الخطاب ،

فما كنت فاعلا فافعل . قال عمر رضى الله عنه : فاستحييت حين رأيت الدم ، فقمت وجلست على السرير وأنا مغضب ، فنظرت فاذا كتاب في ناحية البيت . فقلت أعطوني هذه الصحيفة ، فأبت أخته أن تعطيه إياها وقالت : إنك رجس فانطلق فاغتسل فانه كتاب لايمسه إلا المطهرون ، فلما اغتسل ناولته الصحيفة فاذا فيها : بسم الله الرحمن الرحيم . قال عمر : فلما مررت بالرحمن الرحيم ذعرت ورميت بالصحيفة من يدي وجعلت أفكر من أيّ شيء اشتقّ ؟ قال ثم رجعت إلى نفسي وأخذت الصحيفة فاذا فيها ـ سَبَّحَ لِلَّهِ ما فِي السَّمَوَاتِ والأَرْضِ وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ ، لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ، هُوَ الأَوَّلُ والآخِرُ والظَّاهِرُ وَالبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ، هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى العَرْشِ يَعْلَمُ ما يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا ـ إلى قوله ـ إنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ـ فقلت : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله . واطلع على أخرى فوجد فيها ـ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، طَه ما أَنْزَلْنا عَلَيْكَ القُرآنَ لِتَشْقَى ، إلاَّ تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى ، تَنْزِيلاً مِمَّنْ خَلَقَ الأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ العُلَى ، الرَّحْمَنُ عَلَى العَرْشِ اسْتَوَى ، لَهُ ما فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى ، وَإِنْ تَجْهَرْ بالقَوْلِ فإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وأَخْفَى ، اللهُ لا إلَهَ إلاَّ هُوَ لَهُ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى ـ قال رضى الله عنه : فعظمت فى صدرى ، وقلت : من هذا فرّت قريش .

قال مؤلف هذا الكتاب : وأنا أقول : من هذا تُعرَف البلاغة ، وبهذا كان العرب يدركونها . فإنهم يعرفون الفرق بين قوله : « ألا هبي بصحنك فاصبحينا » وبين قوله تعالى - له ما فى السموات وما فى الأرض وما بينهما وما تحت الثرى - وكلاهما فى فاتحة الكلام .

ثم لما بلغ قوله - إنَّنِي أنا اللهُ لاإلَـهَ إلاَّ أنا فاعْبُدْنِي وأقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي - قال : ما ينبغى لمن يقول هذا أن يعبد غيره ، دلونى على محمد الخ .

ومن ذلك أنه صلى الله عليه وآله وسلم ومعه أبو بكر لقى سادات بنى شيبان بن ثعلبة ، وهم : مفروق بن عمرو وهانئ بن قبيصة ومثنى ابن حارثة والنعمان بن شريك ، وكان مفروق بن عمرو أجملهم وجها وأفصحهم لسانا ، فعرّفهم أبو بكر بشأن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال مفروق : إلام يدعو ، فتقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال « أدْعُو إلى شَهادَةِ أنْ لاإلَـهَ إلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لاشَرِيكَ لَهُ ، وأنى رَسُولُ اللهِ ، وأنْ تُؤْوُونِي وَتَنْصُرُونِي ، فإنَّ قُرَيْشاً قَدْ تَظاهَرَتْ : أيْ تَعاوَنَتْ عَلى أمْرِ اللهِ ، وكَذَّبَتْ رَسُولَهُ ، وَاسْتَغْنَتْ بالباطِلِ عَنِ الحَقِّ ؟ وَاللهُ هُوَ الغَنِيُّ الحَمِيدُ » قال مفروق : وإلام تدعو أيضا يا أخا قريش؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « - قُلْ تَعالَوْا أتْلُ ما حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أنْ لا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبالْوَالِدَيْنِ إحْساناً وَلا تَقْتُلُوا أوْلادَكُمْ مِنْ إمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإيَّاهُمْ وَلا تَقْرَبُوا الفَوَاحِشَ ما ظَهَرَ مِنْها وَما بَطَنَ وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إلاَّ بالحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ

بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ - » . قال مفروق : ماهذا من كلام أهل الأرض ، ولو كان من كلامهم لعرفناه . ثم قال : وإلام تدعو أيضا يا أخا قريش؟ فتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم « - إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي القُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الفَحْشَاءِ وَالمُنْكَرِ وَالبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ - » فقال مفروق : دعوتَ والله إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال . ولقد أفِك قوم صُرفوا عن الحقّ وكذبوك وظاهروا : أى عاونوا عليك .

آيات العلوم والأخلاق فى سورة الفاتحة

سورة الفاتحة كلها آيات علوم ، ولنا أن نجعل القسم الثانى منها أخلاقا ، فان الهداية إلى الصراط المستقيم وما بعدها تفيد تهذيب النفوس .

تمّ بحمد الله تفسير سورة الفاتحة

ويليـــه :

آراء علماء أوروبا فى المؤلف

آراء علماء أوروبا

فى الأستاذ الشيخ طنطاوى جوهرى المؤلف

ليس ذكر الأستاذ (طنطاوى) وشهرته خاصين بالأمم الشرقيَّة من المصريين والجاويين وأهل شمال أفريقيا والهند وغيرها ، بل إن علماء أوروبا قد أعظموه وأجلوه فوق ما يعلمه المسلمون .

ألا ترى إلى ما كتبته المجلة الأسيوية الفرنسية التى تدار بجمع من فحول العلماء ، وتعبر عن آراء طائفة كبيرة من أهل العلم والأدب ، فقد جاء فيها ما يأتى :

فمن مهارة المؤلف المدهشة ، مقارنته للتحليل والتركيب الكيماويين للماء وغيره بمسألة الطير وإبراهيم الخليل ، وهى اية ٣٩٣ السورة الثانية من القرآن ، وبذلك صار علم الكيمياء من دلائل اليقين فى التوحيد الإسلامى ، فصار طلبه من أهمّ علوم التوحيد ، والقرآن يأمر به .

وقالت المجلة أيضا : نحن لايسعنا إلا الاعتراف للشيخ (طنطاوى جوهرى) بسموّ المدارك ، والاطلاع الواسع المقرون بعقل رزين وحكمة وذكاء . فانظر كيف أتى بالفلسفة العالية ، والنواميس الطبيعية ، وفنون الآداب العربية الواسعة ، وأبرزها بمهارة وعبارة عالية ثمينة ، وبلاغة باهرة تكاد تسيل رقة مملوءة حياة وحكمة .

وليس إجلالنا لهذا الأستاذ لما تقدّم فقط ، بل لأنه أيضا ترجم آراء مؤلفى الإنكليز مثل (افبرى ، وسبنسر ، وداروين) وبحث فى الفلسفة الإغريقية واللاتينية ، وجمع زبدة آراء جميع العصور المختلفة ، وحصرها فى كتابه بعبارة جميلة دقيقة كما وصفناها ، واتبع الفائدة أينما وجدها .

الشيخ (طنطاوى جوهرى) رجل فيلسوف حكيم بمقدار ما هو عالم بالدين ، وبهاتين الصفتين فسر القرآن الذى أثبت أنه دين الفطرة بما هو أكثر ملاءمة للطباع البشرية وموافقة للحقائق العلمية والنواميس الطبيعية أيما موافقة ، بخلاف فريق من العلماء الغابرين الذين وقفوا على القشور ، وجمدوا جمودا معيبا أدّى إلى انحطاط المدارك الإسلامية فى الأعصر الأخيرة ، فانحطت بذلك الأمم الإسلامية .

وذكره الأستاذ سنتلانه الطليانى فى مجلة (العلوم الشرقية) فقال

ليس فى مصر من يجهل (الشيخ طنطاوى جوهرى) فهو ذلك الكاتب النحرير والمحرّر الشهير ، ذلك الإنسان ذو العقل الكبير ، إلى أن قال : فقد أراد المؤلف أن ينشر أفكاره بين قومه تارة بالخطابة ، وأخرى بالكتابة الخ .

وآخر من نشر من الأوروبيين عنه الكاتب الشهير البارون (كراديفو) فقد نشر كتابا فى هذا العام سنة ١٩٢٦ بعنوان (مفكرى الإسلام) فهاك ملخصا من تعريب ما يخصّ الحكيم (الشيخ طنطاوى جوهرى) وهو المسطور من ابتداء صفحة ٢٧٥ إلى صفحة ٢٨٤ من المجلد الرابع ؛ فقد ذكر أن المفكرين فى مصر ثلاثة : وهم رفاعة بك ، والإمام الشيخ محمد عبده ، والأستاذ طنطاوى جوهرى .

وقد وصف أسلوبه بأنه بديع لانظير له ، وأن تفسير القرآن له المسمى (الجواهر) روح جديدة مجدّدة لشباب الإسلام ، وإن من أساليب الأستاذ فى بعض كتبه ما يقاس بأسلوب (توماس موروس ، وكامبانيلا ، وباسبفيكس) والمعاصر (هانريز) وهؤلاء من الأوروبيين ، ويقاس بابن الطفيل من الشرق والفارابى والقزوينى ، مع نضوج فكره فى علوم عصرنا .

وممّا قاله : إن آراءه فى بعض كتبه فوق المستوى الفكرى العامّ ، وأسلوبه فيها يحدث فى الشيوخ طرب الشباب ، وسحره يقلب الطبائع البشرية إلى الكمال .

وهاك نبذة من كلام البارون (كراديفو) المذكور فى (تفسير الجواهر) ما ترجمته :

(الشيخ طنطاوى) المصرى الجنس ، أبرز لنا كتبا كثيرة فلسفية دينية ، وهو روح قوية مفيدة ، يملك الذوق العلمى ، ويشعر بنشاط قوىّ وحماسة بما فى الأمم الإسلامية من النقص المشين الذى حطّ من كرامتها فى عيون أمم الغرب ويجدّ فى بثّ فكرته ونشاطه وحماسته بين معاصريه فى أقطار الإسلام ، ليبرهن لهم أن اكتساب العلوم ليس مما لايضادّ الإسلام فحسب ، بل إن العلوم مجدّدة لشباب الإسلام ، ويعطى له قوى جديدة ، ويتبين من كلامه أنه رجل السلم والإنسانية ، الراغب أن يرى المودّة مشيدة الصروح بين أمم الأرض ، معتقدا أن الديانات تسعى لنشر هذه المودّة العامة ؛ كما يظهر من ناحية أخرى أنه مخلص صادق أمين ، وهذا الحكم استنتجناه من أسلوبه السهل المنتعش الحياة العالى النادر الوجود .

وبالجملة ، فالأستاذ يتجلى فى نفسى من كلامه بهيئة محبوبة ذات روح لطيفة وشخصية بارزة . فسر القرآن بطريقة فريدة تستحقّ الاحترام والإجلال شيقة جديدة ، ومع ذلك لم يشذّ فيها عن آراء المتقدمين .

ابتدأ هذا التفسير وهو مدرّس بدار العلوم ، وكان يلقى على تلاميذه بعض الآيات ، وتلقفته جميع الأقطار الإسلامية وانتشر فيها أىّ انتشار ، والصفحات الأولى منه تريك حجة واضحة ، وآية ظاهرة ، وقوّة باهرة تحثّ على مطالعة العلوم الطبيعية .

إن المؤلف يضع موازنة بين العلوم الطبيعية التى شغلت أذهان مفكرى الإسلام والعلوم الفقهية ويقول : إن القرآن لم يحثّ على مطالعة العلوم الكونية فقط ، بل جعلها فى المكان الأعلى فوق العلوم الأخرى ، وفى القرآن كما يقول الأستاذ (١٥٠) آية تدلّ على الفقه و (٧٥٠) آية تدلّ على علوم الطبيعة ، وهذا حساب غريب ، ولكن هذا الحساب مزين بالجمال وهو خير مشجع لقرائه ، وهو يقسم العلوم إلى قسمين : القسم الأوّل هو كل العلوم ، من علوم الآفاق وعلوم الأنفس : أى العلوم الطبيعية والفلكية وعلوم النفس. والقسم الثانى علم الفقه . ثم قال : نحن معاشر المسلمين يجب علينا أن نقرأ عجائب المخلوقات كما نقرأ الفقه ، وبهذه العلوم الكونية نعرف جلال الله تعالى وجماله ، فنرتقى فى الفنون والصناعة والزراعة ، لهذا أدعو جميع الأمم الإسلامية الشرقية منها والغربية ، وإلا فلماذا يقول الله تعالى ـ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ـ .

ثم أخذ العلامة البارون (كراديفو) يبين إنذار الأستاذ المفسر للمسلمين بأن الله ينزل سخطه عليهم كما أباد عادا وثمود إذ لم يقرءوا هذه العلوم كما أمر الله تعالى ، وقال : إن هذا العذاب ابتدأ فعلا بإلقاء القنابل من الطيارات على الشيوخ والأطفال فى القرى والبلدان من الأمم الأوروبية .

ويقول أيضا : إن العلوم إما غذاء وإما دواء ، والغذاء هى العلوم الكونية ، والدواء هى العلوم الفقهية . والغذاء مقدم على الدواء كما قدم الله فى الفاتحة تربية العالمين على ذكر العبادة ترجع لسائر العلوم الطبيعية .

ثم أبان البارون أنّ المفسر فى السطور الأولى من تفسيره هجم هجوما شديدا أظهر مقصوده بوضوح ، وأنه قزوينى العصر الحاضر

ثم ذكر ما تقدم فى تفسير الفاتحة من الحيوان المسمى (اكسيليكوب) فلا نطيل بذكره ، وقال : إن الأستاذ يستخدم الطرق العلمية الحديثة وذكر حادثة توجهه إلى مدرسة الزراعة المصرية بالجيزة ، وأنه رأى حبة القمح ، وقد تقدم ذلك ، وأعقبه بمسألة الذرة فى تفسير الحمد لله ربّ العالمين ، وبيان كيفية الإلقاح فيها ، وقد مرّ فى تفسير الفاتحة فلا نعيده ، فقد نقله البارون بالحرف الواحد بالترجمة إلى اللغة الفرنسية .

وبعد ذلك قال : هذا هو الأسلوب الذى جرى عليه المؤلف فى تفسيره ، فلينظر القارئ كيف مزج العلوم الحديثة بالتفسير علما منه بأنها مفيدة جدا ، وهو وإن كان مغرما بذلك لم يترك ما سطره كبار الشعراء عند المسلمين ، بل أخذ يوازن بين كلامهم وبين سورة الفاتحة ، وفوق ذلك لم يدع القصص التاريخية بل أدخلها فى تفسيره .

أفلا تعجب إذن من أن تفسيره ذو صبغة جميلة جدية شائقة عجيبة لم ينسج على منوالها ناسج ، فانظر ما قاله بعد ذلك ، تأمّل قول زهرة لرستم قائد جيش الفرس إذ ذاك « إنا لم نأتكم لطلب الدنيا الخ » وقد تقدم ذلك فى تفسير الفاتحة ، إلى قوله : وقد آن أن ترجع إلى عزّها القديم ومجدها العظيم .

هـذا هو الذى كتبه البارون (كراديفو) فى عشر صفحات بالفرنساوية ، وقد اقتطفنا منه ما يهمّ ، وأشرنا إلى الباقى بالإحالة على ما تقدّم ، وهو قد نقله منه .

والحمد لله ربّ العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد النبىّ الأمىّ وعلى آله وصحبه وسلم .

فهرست تفسير سورة الفاتحة

صحيفة

صحيفة

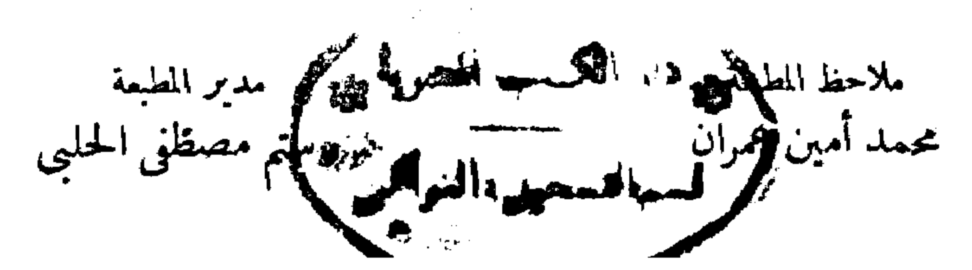
صحيفة

بحمد الله تعالى وحسن توفيقه قد تمّ طبع كتاب :

تفسير سورة الفاتحة للشيخ طنطاوى جوهرى

مصححا بمعرفة لجنة التصحيح برياسة : الشيخ أحمد سعد على

القاهرة فى يوم الاثنين ٨ جمادى الأولى ١٣٧١ هـ — ٤ فبراير ١٩٥٢ م



ملاحظ المطبعة — مدير المطبعة

محمد أمين عمران — رستم مصطفى الحلبى